الهند بالعود إليه ، وفرقوا فيهم أموالاً كثيرة فعادوا، وسار الوزير ومعه من له أقطاع وأهل بغزنة، وعلموا يكون من غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين الأكبر ، وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة، وكان ميل الوزير والأتراك وغيرهم إلى غياث الدين محمود، وكان الأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام صاحب باميان ، فأرسل كل طائفة إلى من يميلون إليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الأمور، وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة ، فقال للمماليك : إن فخر الدين الرازي قتل مولاكم لأنه هو أوصل من قتله ، فوضع من خوارزمشاه ، فثاروا به ليقتلوه ، فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير، فأعلمه الحال ، فسبره سراً إلى مأمنه ، ولما وصل العسكر والوزير إلى فرشابور اختلفوا، فالغورية يقولون نسير إلى غزنة على طريق مكرهان ، وكان غرضهم أن يقربوا من باميان ، ليخرج صاحبها بهاء الدين سام ، فيملك الخزانة، قال الأتراك بل نسير على طريق سوران ، وكان مقصودهم أن يكونوا قريباً من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين ، وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولهاوور وليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة، ويرسلون من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنة ويملكونه ، وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون ، فتوصل مؤيد الملك مع الغوربة حتى أذنوا له وللأتراك بأخذ الخزانة والمحفة التي فيها شهاب

الدين ، والمسير على كرمان ، وساروا هم على طريق مكرهان ، ولقى الوزير ومن معه مشقة عظيمة، وخرج عليهم الأمم الذين في تلك الجبال التيراهية وأوغان وغيرهم ، فنالوا من أطراف العسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان ، فخرج إليهم تاج الدين الدز يستقبلهم ، فلما عاين المحفة وفيها شهاب الدين ميتا نزل ، وقتل الأرض على عادته في حياة شهاب الدين ، وكشف عنه ، فلما رآه ميتاً مزق ثيابه وصاح وبكى فأبكى الناس وكان يوماً مشهوداً .

ذكر ما فعله الدز

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلاً عنده ، بحيث إن أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه في أشغالهم ، فلما قتل صاحبه طمع أن يملك غزنة، فأول ما عمل أنه سال الوزير مؤيد الملك عن الأموال والسلاح والدواب ، فأخبره بما خرج من ذلك وبالباقي معه ، فأنكر الحال وأساء أدبه في

الجواب ، وقال : إن الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملّكوه غزنة ، وقد كتب الى غياث الدين محمود، وهو مولاي يأمرني أنني لا أترك أحداً يقرب من غزنة ، وقد جعلني نائبه فيها وفي سائر الولاية المجاورة لها لأنه مشتغل بأمر خراسان ، وقال للوزير: إنه أمرني أيضاً أن أتسلم الخزانة منك ، فلم يقدر على الامتناع لميل الأتراك إليه فسلمها إليه وسار بالمحفة والمماليك والوزير إلى غزنة فدفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها، ودفن ابنته فيها، وكان وصوله إليها في الثاني والعشرين من شعبان من السنة .

ذكر بعض سيرة شهاب الدين

كان رحمه الله شجاعاً مقداماً كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلا في رعيته ، حسن السيرة فيهم حاكماً بينهم بما يوجبه الشرع المطهر، وكان القاضي بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة ، فيحكم القاضي وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع ، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره ، وسمع كلامه ، وأمضى عليه أوله حكم الشرع ، فكانت الأمور جارية على أحسن نظام .

(حكي عنه)أنه لقيه صبي علوي عمره نحو خمس سنين فدعا له وقال : لي خمسة أيام ما أكلت شيئاً، فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبي ، فنزل في داره وأطعم العلوي أطيب الطعام بحضرته ، ثم أعطاه مالا بعد أن أحضر أباه وسلمه إليه ، وفرّق في سائر العلويين مالاً عظيماً .

(وحكي) أن تاجراً من مراغة كان بغزنة، وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار، فقتل المملوك في حرب كانت له ، فرفع التاجر حاله ، فأمر بأن يقر أقطاع المملوك بيد التاجر إلى أن يستوفي دينه ففعل ذلك .

(وحكي عنه) أنه كان يحضر العلماء بحضرته ، فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها، وًكان فخر الدين الرازي يعظ في داره ، فحضر يوماً فوعظ ، وقال في آخر كلامه : يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي ، وأنّ مردنا إلى الله ، فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه ، وكان رقيق القلب ، وكان شافعي المذهب مثل أخيه ، قيل : وكان حنفياً والله أعلم .

ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته

لمّا ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوّجه أخته ، فأتاه منها ولد اسمه سام ، فبقي فيها إلى أن توفي وملك بعده ابنه الأكبر واسمه عباس وأمه تركية ، فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين في ذلك ، وأرسلا من أحضر عباساً عندهما، فأخذ الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكاً على باميان ، وتلقب بهاء الدين وعظم شانه ومحله ، وجمع الأموال ليملك البلاد بعد خاله وأحبّه أمراء الغورية حباً شديداً وعظَموه ، فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعضَ الأمراء الغورية إلى بهاء الدين سام ، فاخبره بذلك ، فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد، ويعرفهم أنه على الطريق سائر إليهم ، وكان والي قلعة غزنة ويرف بأمير دار، وقد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة، فأعاد جوابه أنه تجهز ويصل إليه ويعده الجميل والاحسان ، وكتب بهاج الدين إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ملك الغور، يستدعيه ، إليه وإلى غياث الدين محمود بن غياث الدين ، وإلى ابن خرميل ، وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له ، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال ، ولم يظن أن أحداً يخالفه ، فأقام ل أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والأتراك ، ويقولون لا: نترك غير ابن سيدنا – يعنون غياث الدين – يدخل غزنة ، والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين ومنع غيره ، فسار من باميان إلى غزنة في عساكر ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين ، فلما سارعن باميان مرحلتين وجد

صداعاً، فنزل يستريح ينتظر خفته عنه ، فازداد الصداع وعظم الأمر عليه ، فأيقن بالموت ، فاحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين ، وأمرهما كل بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية ، وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الأموال ، وأمرهما أن يصالحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور، ويكون لهما غزنة وبلاد الهند .

ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه

لما فرغ بهاء الدين من وصيته ، توفي فسار ولداه إلى غزنة، فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما، وخرج الأتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ، ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان ، وكانوا قد وصلوا في ضروقلة من

العسكر، وأراد الأتراك منعهم ، فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ، ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والي هراة – على ما نذكره ، فلم يرجعوا ، ولما استقرا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راسلهما الأتراك بأن يخرجا من الدار وإلا قاتلوهما ، ففرقا فيهم أموالًا كثيرة ، واستحلفاهم . فحلفوا واستبوا غياث الدين محموداً ، وأنفذا خلعاً إلى تاج الدين الدز، وهو بأقطاعه مع رسول ، وطلباه إلى طاعتهما ، وواعداه بالأموال والزيادة في الأقطاع وإمارة الجيش والحكم في جميع الممالك ، فاتاه الرسول فلقيه ، وقد سار عن كرمان في جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم ، فأبلغه الرسالة فلم يلتفت إليه ، وقال : قل لهما يعودان إلى باميان وفيها كفاية، فإني قد أمرني مولاي غياث الدين أن أسير إلى غزنة وأمنعهما عنها، فإن عادا إلى بلدهما وإلا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ، ورد ما معه من الهدايا والخلع ، ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه ، وإنما أراد أن يجعل هذا طريقاً إلى ملك غزنة لنفسه ، فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز، فأرسل وزيره ، وكان قبله وزير أبيه إلى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود إليه ، فأرسل الدز إلى الأتراك الذين بغزنة –يعرفهم أن غياث الدين أمره أن يقصد غزنة، وُيخرج علاء الدين وأخاه منها، فحضروا عند وزير علاء الدين ، وطببوا منه سلاحاً، ففتح خزانة السلاح ، فهرب ابن الوزير إلى علاء الدين ، وقال له قد كان كذا وكذا، فلم يقدر أن يفعل شيئا وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين ، فركب وأنكر على الخازن تسليم "المفاتيح ، وأمره فاسترد

ما نهبه الترك جميعه لأنه كان مطاعاً فيهم ، ووصل الدز إلى غزنة،فأخرج إليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الأتراك ، وفيهم صونج صهر الدز، فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل ، وينتظر العسكر مع وزيره ، فلم يقبل منهم وسيّر العساكر فالتقوا خامس رمضان ، فلما لقوه خدعه الأتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين ، فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم ، وهو محمد بن علي بن حردون ، ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والبامانية ، وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها في عشرين فارساً وسار عن غزنة . فقالت له امرأة تستهزىء به : إلى أين تمضي خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا، فقال لها : إنك سترين ذلك اليوم وأفعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لي ، وكان قد قال لأخيه : احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر ، فبقي الدز يحاصرها ، وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك .

وأرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده إن لم يخرج منها، وترددت الرسل بينهما في ذلك ، فأجاب إلى مفارقتها والعود إلى بلده ، وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض إليه ، ولا إلى أحد ممن يحلف له ، وسار عن غزنة ، فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل إلى تربة شهاب الدين مولاه ، ونزل إليها ونهب الأتراك ما كان مع علاء الدين وألقوه عن فرسه ، وأخذوا ثيابه ، وتركوه عرياناً بسراويله ، فلما سمع الدز ذلك أرسل إليه بدواب وثياب ومال ، واعتذر إليه فأخذ ما لبسه وترك الباقي ، فلما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد وركب حماراً، فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة، فلم يركب ولم يلبس ، وقال : أريد أن يراني الناس وما صنع بي أهل غزنة حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبتها لا يلومني أحد، ودخل دار الإمارة وشرع في جمع العساكر.

ذكر ملك الدُز غزنة

قد ذكرنا استيلاء الدُز على الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين ، وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الأتراك والخلج وغيرهم ، وسار إلى غزنة، وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا، فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره ، وإنما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب ، فلما كان في اليوم الرابع أحضر مقدمي النورية والأتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير دار والي غزنة ، فلما كان الغد ، وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضاً

رسول الخليقة، وهو الشيخ مجد الدين أبو علي بن الربيع الفقيه الشافعي مدرّس النظامية ببغداد، وكان قد ورد إلى غزنة رسولا إلى شهاب الدين ، فقتل شهاب الدين ، وهو بغزنة فأرسل إليه والى قاضي غزنة يقول له : إنني أريد أن أنتقل إلى الدار السلطانية ، وأن أخاطب بالملك ، ولا بد من حضورك والمقصود من هذا أن تستقر أمور الناس ، فحضر عنده فركب الدز والناس في خدمته وعليه ثياب الحزن ، وجلس في الدار في غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين ، فتغيرت لذلك نيات كثير من الأتراك لأتهم كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه يريد الملك لغياث الدين ، فحيث رأوه يريد الانفراد تنيّروا عن طاعته حق إن بعضهم بكى غيظاً من فعله ، وأقطع

الإقطاعات الكثيرة، وفرق الأموال الجليلة ، وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم ، فأنفوا من خدمة الدز، وطلبوا منه أن يقصدوا خدمة غياث الدين وأخيه صاحبي باميان ، وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره ويثني عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غزنة، وسيّر له الخلع ، وطلب منه الخطبة والسكة فلم ينعل ، وأعاد الجواب فغالطه وطلب منه أن يخاطبه بالملك ، وأن يعتقه من الرق لأن غياث الدين ابن أخي سيده لا وارث له سواه ، وأن يزوج ابنه بابنة الدز فلنم يجبه إلى ذلك ، واتفق أن جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على أعمال كرمان وسوران ، وهي أقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا، فأرسل صهره صونج في عسكر، فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيراً، وأنفذ رؤوسهم إلى غزنة، فنصبت بها وأجرى الدز في غزنة رسوم شهاب الدين ، وفرق في أهلها أموالا جليلة المقدار، وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيرا له فامتنع من ذلك ، فالح عليه فأجابه على كره منه ، فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه ، فقال : بماذا تهنئني من بعد ركوب الجواد بالحمار وأنشد :

ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر إطلاقه واشبب

بينا الدز يأتي إلى بابي ألف مرة حتى آذن له في الدخول أصبح على بابه ، ولو حفظ النفس مع هؤلاء الأتراك لكان لي حكم آخر.

ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين ، فإنه كان في أقطاعه وهو بست واسفرار، وكان الملك علاء الدين بن محمد بن علي قد ولّاه شهاب الدين بلاد النور وغيرها من أرض الراون ، فلما بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفاً أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها، وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت النورية إلا أن الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين ، وأبى الأمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ، ولأنه كان كرامياً مغالياً في مذهبه ، وأهل فيروزكوه شافعية ، وألزمهم أن يجعلوا الإقامة مثنى ، فلما وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأمراء منهم محمد المرغي وأخوه ومحمد بن عثمان ، وهم من أكابر الأمراء، وحلفهم على مساعدته على

قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ، ولم يذكر غياث الدين احتقاراً له ، فحلفوا له ولولده من بعده ، وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك في شيء انتظاراً لما يكون من صاحب باميان ، لأنهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين ، وكان بهاء الدين أقوى، فلهذا لم يفعل شيئأ، فلما بلغه خبر موت بهاء الدين ، جلس غلى التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان ، وحلف الأمراء الذين قصدوه وهم إسماعيل الخلجي وسونج أمير اشكار وزنكي بن خرجوم وحسين الغوري صاحب تكيا باذ وغيرهم وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين .

وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ، وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه ويستعطفه ، ليصده عن رأيه ، ويسلم مملكته إليه؛ وكتب إلى الحسين بن خرميل ، وإلى هراة مثل ذلك أيضاً، ووعده الزيادة في اِلإقطاع ، فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب ، وكتب إلى الأمراء الذين معه ، يتهددهم فرحلِ غياث الدين إلى فيروزكوه ، فأرسل علاء الدين عسكراً مع ولده ، وفرق فيهم مالاً كثيراً ، وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريباً من فيروزكوه ، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلجي المغفر عن وجهه ، وقال : الحمد لله أن الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية ، وردوا ابن ملك باميان ، وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان ورباكم وأحسن إليكم كفرتم اِلإحسان وجئتم تقاتلون ولده أهذا فعل الأحرار، فقال محمد المرغني ، وهو

مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه :لا والله ، ثم ترجل عن فرسه وألقى سلاحه وقصد غياث الدين .وقبل الأرض بين يديه ، وبكى بصوتٍ عال ، وفعل سائر الأمراء كذلك ، فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده ، فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هارباً نحو الغور، وهو يقال : أنا أمشي أجاور بمكة ، فأنفذ غياث الدين خلفه من رده إليه ، فأخذه وحبسه ، وملك فيروزكوه ، وفرح به أهل البلد، وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ، ولمّا دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع ، فصلى فيه ، ثم ركب إلى دار أبيه ، فسكنها وأعاد رسوم أبيه واستخدم حاشيته ، وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيراني وزير أبيه واستوزره ، وسلك طريق أبيه في الإحسان والعدل ، ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة إلا ابن خرميل بهراة واجتذابه إلى طاعته ، فكاتبه وراسله واتخذه أباً واستدعاه إليه ، وكان ابن

خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان ، فجمع أعيان الناس ، منهم قاضي هراة صاعد بن الفضل النيسابوري، وعلي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة ، وشيخ الاسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمي المحال ، وقال لهم : قد بلغني وفاة السلطان شهاب الدين ، وأنا في نحو خوارزمشاه ، وأخاف الحصار، وأريد أن تحلفوا لي على المساعدة على كل من نازعني ، فأجابه القاضي وابن زياد : بأننا نحلف على كل الناس إلا ولد غياث الدين ، فحِقد عليهما، فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه ، فغالطه في الجوابَ .

وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكراً ليصير في طاعته ، ويمتنع به على الغورية، فطلب منه خوارزمشاه إنفاذ ولده رهينة ويرسل إليه عسكراً ، فسيّر ولده إلى خوارزمشاه ، فكتب خوارزمشاه إلى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه إلى هراة ، وأن يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا، وغياث الدين يتابع الكتب إلى ابن خرميل وهو يحتج بشيء بعد شيء انتظاراً لعسكر خوارزمشاه ، ولا يؤيسه من طاعته ، ولا يخطب له ويعطيه طاعة غير مستوية، ثم إن الأمير علي بن أبي علي صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل ، فعزم غياث الدين على التوجه إلى هراة فثبطه بعض الأمراء الذين معه ، وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره ؛ وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين ، فقال له : علي بن عبد الخلاق

بن زياد مدرّس النظامية بهراة ، وهو متولي وقوف خراسان التي بيده للغوريّة جميعها : ينبغي أن تخطب للسلطان غياث الدين ، وتترك المغالطة إنني أخاف على نفشي ، فامض أنت وتوثق لي منه ، وكان قصده أن يبعده عن نفسه ، فمضى برسالته إلى غياث الدين ، وأطلعه على ما يريد ابن خرميل يفعله من الغدر به والميل إلى خوارزمشاه ، وحثًّه على قصد هراة وقال له : أنا أسلمها إليك ساعة تصل إليها، ووافقه بعض الأمراء وخالفه غيرهم ، وقال : ينبغي أن لا تترك له حجة، فترسل إليه تقليداً بولاية هراة ، ففعل ذلك ، وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ، ثم إن غياث الدين كاتب أميران بن قيصر صاحب الطالقان ، يستدعيه إليه ، فتوقف وأرسل إلى صاحب مرو ليسير إليه فتوقف أيضاً : فقال له أهل البلد إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك إليه ، فأضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه ،

فخلع عليه غياث الدين وأقطعه إقطاعات شتى ، وأقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمير اشكار .

ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد النورية بخراسان

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والي هراة خوارزمشاه ، ومراسلته في الانتماء إليه ، والطاعة له ، وترك طاعة الغورية ، وخداعه لغياث الدين ، ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظاراً لوصول عسكر خوارزمشاه ، ووصول رسول غياث الدين ، وابن زياد بالخطبة ، فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم ، فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة، فقال نحن في شغل أهم منها بوصول هذا العدو، فطالت المجادلات بينهم في ذلك ، وهو مصرٌّ على الامتناع منها، ووصل عسكر خوارزمشاه ، فلقيهم ابن خرميل ، وأنزلهم على باب البلد، فقالوا له : قد أمرنا خوارزمشاه أننا لا نخالف لك أمر فشكرهم على ذلك ، وكان يخرج إليهم كل يوم وأقام لهم الوظائف الكثيرة، وأتاه الخبر أن خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد، فلم ينزل بالقرب منها، فنزل على أربعة فراسخ ، فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه ، وقال لخواصه لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل ، فإني أراه عاجزاً وشرع في إعادة العسكر، فقال للأمراء : إن خوارزمشاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له إنني على العهد الذي بيننا ، وأنا أترك ما كان لأبيك بخراسان والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما يكون ، فعادوا وأرسل إليهم الهدايا الكثيرة .

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه إلى هراة أخذ إقطاع ابن خرميل ، وأرسل إلى كرزيان وأخذ كل ما له بها من مال وأولاد ودواب وغير ذلك ، وأخذ أصحابه في القيود، وأتاه كتب من يميل إليه من الغورية يقولون له : إن رآك غياث الدين قتلك ، ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه ، والمكاتبة إلى غياث الدين بإنفاذ من يتسلم البلد، وكتب القاضي صاعد قاضي هراة وابن زياد إلى غياث الدين بذلك ، فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله ، وبما عزم عليه أهل هراة خاف أن يعاجله بالقبض ، فحضر عند القاضي وأحضر أعيان البلد ، وألان لهم القول ، وتقرب إليهم وأظهر طاعة غياث الدين ، وقال :

قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد أرسل رسولاً إلى غياث الدين بطاعتي ، والذي أوثره منكم أن تكتبوا معه كتاباً بطاعتي ، فاستحسنوا قوله ، وكتبوا له بما طلب ، وسير رسوله إلى فيروزكوه ، وأمره إذا جنه الليل أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ، ويجد السير، فإذا لحقهم ردَّهم إليه ، ففعل الرسول ما أمره ، ولحق العسكر على يومين من هراة، فامرهم بالعود، فعادوا، فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا إلى هراة، والرسول بين أيديهم ، فلقيهم ابن خرميل ، وأدخلهم البلد والطبول تضرب بين أيديهم ، فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه ، فسمله وأخرج القاضي صاعداً من البلد، فسار إلى غياث الدين بفيروزكوه ، وأخرج من عنده من الغورية، وكل من يعلم أنه يريدهم وسلم أبواب البلد إلى الخوارزمية 1.

وأما غياث الدين ، فإنه برز من فيروزكوه نحو هراة ، وأرسل عسكراً فأخذوا حشيراً كان لأهل هراة، فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره ، فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة، وجعل المقدم عليهم علي بن أبي علي وأقام هو بفيروزكوه لما بلغه أن خوارزمشاه على بلخ ، فسار العسكر وعلى يزكه الأمير أميران بن قيصر الذي كان صاحب الطالقان ، فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليزك ، ويأمره بالمجيء إليه ، فإنه لا يمنعه وحلف له على ذلك ، فسار ابن خرميل في عسكره ، فكبس عسكر غياث الدين ، فلم يلحقوا يركبون خِمولهم حتى خالطوهم ، فقتلوا فيهم ، فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفاً أن

يهلكوا ، وغنم وأسر إسماعيل الخلجي ، وأقام بمكانه وأرسل عسكره ، فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها، وعظم الأمر على غياث الدين ، فعزم على المسير إلى هراة بنفسه ، فأتاه الخبر أن علاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة – على ما نذكره – فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدز.

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لمّا بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده ،من الغوريين الذين كان أسرهم في المصاف على باب خوارزم ، فخلع عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال ، وقال : إن غياث الدين أخي ولا فرق بيني وبينه ، فمن أحب منكم المقام عندي فليقم ومن أحب أن يسير إليه فإني أسيره ولو أراد مني مهما أراد نزلت له عنه وعهد إلي محمد بن علي بن بشير وهو من أكابر الأمراء الغورية ، فأحسن إليه وأقطعه استمالة للغورية ، وجعله سفيراً بينه وبين صاحب بلخ ، فستر أخاه علي شاه بين يديه في عسكره إلى بلخ ، فلما قاربها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين النوري أميرها،

فدفعه عن النزول عليها، فنزل على أربعة فراسخ عنها ، فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم ، فسار إليها في ذي القعدة من السنة، فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها، فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهمِ ، فنزلوا فصار يوقع بهم ليلاً، فكانوا معه على أقبح صورة، فأقام صاحب بلخ محاصراَ، وهو ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان ، وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة –على ما ذكرناه –وعلى ما نذكره إن شاء اللّه تعالى – فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوماً كل يوم يركب إلى الحرب ، فيقتل من أصحابه كثير ولا يظفر بشيء ، فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن علي بن بشير الغوري ، وبذل له بذلاً كثيراً ليسلم إليه البلد، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه ، فعزم على المسير إلى هراة، فله ، سار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان إلى غزنة المرة الثانية – على ما نذكره إن شاء الله تعالى – وأسرهم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم ، وأرسل محمد بن علي بن بشير إلى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم ، وأنه لا يبقى عليه حجة ولا له في التأخر عنه عذر، فدخل إليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة، وقال : أنا أعلم أنه لا يفي له ، وأرسل من يستحلفه على ما أراد، فتم الصلح وخرج إلى خوارزم شاه ، فخلع عليه وأعاد إلى بلده ، وكان سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ، ثم سار خوارزم شاه إلى كرزيان ليحاصرها وبها علي بن أبي علي ، وأرسل إلى غياث الدين

يقول : إن هذه كان قد أقطعها عمّك لابن خرميل ، فتنزل عنها فامتنع وقال : بيني وبينكم السيف ، فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمد بن علي بن بشير، فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ، ولم يزل به حتى نزل عنها وسلّمها، وعاد إلى فيروزكوه ، فأمر غياث الدين بقتله ، فشفع فيه الأمراء، فتركه وسلم خوارزم شاه كرزيان إلى ابن خرميل ، ثم أرسل إلى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه إليه ، ويقول : قد حضر معهم ولا غنى عن حضورك ، فأنت اليوم من أخص أوليائنا، فحضر عنده فقبض عليه وسيًره إلى خوارزم ومضى هو إلى بلخ فأخذها واستناب بها جعفراً التركي . لم

ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسلمها إلى الخطا

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجداً وبها ولد عماد الدين الذي كان صاحب بلخ ، فأرسل إليه محمّد بن علي بن بشير يقول له : إن أباك قد

صار من أخصّ أصحابي وأكابر أمراء دولتي ، وقد سلم إلي بلخ ، وإنما ظهر لي منه ما أنكرته فسيّرته إلى خوارزم مكرماً محترماً، وأما أنت فتكون عندي أخاً ووعده وأقطعه الكثير، فخدعه محمّد بن علي ، فرأى صاحبها أن خوارزم شاه قد حصره من جانب ، والخطا قد حصروه من جانب آخر، وأصحابه قد أسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وأسل من يستحلف له خوارزم شاه ، فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها إلى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكراً قبيحاً في عاجل الأمر، ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه إنما سلمها إليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ، ثم يعود إليهم فيأخذها وغيرها منهم ، لأنه لما ملك خراسان ، وقصد بلاد الخطا وأخذها وأفناهم ظهر على الناس أنه فعل ذلك خديعة ومكراً – غفر الله له – .

ذكر عود أصحاب باميان إلى غزنة

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي إلى غزنة، وإخراجه علاء الدين وجلال الدين – ولدي بهاء الدين سام صاحب باميان – منها بعد أن ملكها، وأقام هو في غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة إلى خامس ذي القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل في الرعية، وأقطع البلاد للأجناد، فبعضهم قام ، وبعضهم سار إلى غياث الدين ، ولم يخطب لأحد ولا لنفسه ، وكان يعد الناس بانَّ رسولي عند مولاي غياث الدين ، فإذا عاد خطبت له ، ففرح الناس بقوله : وكان يفعل ذلك مكراً وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك ، وسائر الرعايا ؛ وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان ، فكان يستخدم الأتراك وغيرهم بهذا القول

وأشباهه ، فلما ظفر بصاحب باميان على – ما نذكره – أظهر ما كان يضمره ، فبينما هو في هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين صاحب باميان في العساكر الكثيرة، وأنهم قد عزموا عليِ نهب غزنة ، واستباحة الأموال والأنفس ، فخاف الناس خوفاً شديداً ، وجهز الدز كثيراَ من عسكره ، وسيّرهم إلى طريقهم فلقوا أوائل العسكر، فقتل من الأتراك وأدركهم العسكر، فلم يكن لهم قوة بهم ، فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون ، فوصل المنهزمون إلى غزنة فخرج عنها الدز منهزماً يطلب بلده كرمان ، فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، فردهم عنه وأحضر من كريان مالاً كثيراً وسلاحاً، ففرقه في العسكر، وأما علاء الدين وأخوه فإنهما تركا غزنة لم يدخلاها، وسارا في أثر الدز، فسمع بهم ، فسار عن كرمان فنهب الناس

بعضهم بعضاً، وملك علاء الدين كرمان وأمنوا أهلها، وعزموا على العود إلى غزنة ونهبها. فسمع أهلها بذلك ، فقصدوا القاضي سعيد بن مسعود وشكوا إليه حالهم ، فمشى إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب ، وأخبره بحال الناس ، فطيب قلوبهم وأخبرهم غيره ممن يثقون إليه أنهم مجمعون على النهب ، فاستعدوا وضيّقوا أبواب الدروب والشوارع ، وأعدوا العرادات والأحجار، وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا إلى أصحاب السلطان ، فلم يسكنهم أحد فقصدوا دار مجد الدين ابن الربيع رسول الخليفة، واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم ، وفي أهل البلد، فأرسل إلى أمير كبير من الغورية يقال له : سليمان بن سشمر، وكان شيخاً كبيراً يرجعون إلى قوله يعرفه الحال ، ويقول له : يكتب إلى علاء الدين وأخيه يتشفع في الناس ، ففعل وبالغ في الشفاعة وخوفهم من أهل البلدان أصروا على النهب فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة، وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة ، فعوضوهم من الخزانة ، فسكن الناس .

وعاد العسكر إلى غزنة أواخر ذي القعدة ومعهم الخزانة التي أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلًا، فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ، ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب إثني عشر ألف ثوب ، وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع أخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره ؛ فلما سمع علاء الدين بذلك

قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيّات الناس واختلفوا، ثم إن علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة، وجرى بينهما من المشاحنة ما لا يجري بين التجار، فاستدل بذلك الناس على أنهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما واختلافهما، وندم الأمراء على ميلهم إليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه وإحسانه ، ثم إن جلال الدين وعمه عباساً سارا في بعض العسكر إلى باميان ، وبقي علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الأجناد والرعية ، ونهب أموال الأتراك حتى أنهم باعوا أمهات أولادهم ، وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت إليهن .

ذكر عود الدز إلى غزنة

لما سار جلال الدين عن غزنة ، وأقام بها أخوه علاء الدين ، جمع الدز ومن معه من

الأتراك عسكراً كثيراً وعادوا إلى غزنة، فوصلوا إلى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية ، ووصل المهزمون إلى كرمان ، فسار الدز إليهم ، وجعل على مقدمته مملوكاً كبيراً من مماليك شهاب الدين اسمه أي دكز التتر في ألفي فارس من الخلج والأتراك والغز والغورية وغيرهم ، وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له : ابن المؤيد، ومعه جماعة من الأمراء منهم أبو علي بن سليمان بن سيسر، وهو وأبوه من أعيان الغورية ، وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران من ذلك فقيل لهما : إن عسكر الأتراك قد قربوا منكم ، فلم يلتفتا إلى ذلك ولا تركا ما كانا عليه ، فهجم عليهم أي دكز التتر ومن معه من الأتراك ، فلم يمهلهم يركبون خيولهم ، فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل في المعركة، ومنهم من قتل صبراً ولم ينجع إلا من تركه الأتراك عمداً ، ولما وصل الدز، فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى ، قال : كل هؤلاء قاتلونا فقال أي دكز التتر :لا بل قتلناهم صبراً فلامه على ذلك ووبخه ، وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه ، فسجد شكراً لله تعالى، وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا، وكان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان ابن سيسر، ووصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر، فتغيمت السماء، وجاء مطر شديد خرّب بعض غزنة، وجاء بعده بردٌ كبار مثل بيض الدجاج ، فضج الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب ، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، وسكن ما كانوا فيه ، وملك الدز كرمان وأحسن إلى أهلها، وكانوا في ضر شديد مع أولئك ، ولما صح

الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره الصاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدز ويستنجده، وكان قد أعد العساكر ليسير إلى بلخ يُرحل عنها خوارزمشاه ، فلما أتاه هذا الخبر، ترك بلخ وسار إلى غزنة ، وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه ، وقصدوا غياث الدين ، فلما كان أواخر ذي الحجة وصل الدز إلى غزنة ونزل هو وعسكره بإزاء قلعة غزنة، وحضر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد، وأمر الدز فنودي في البلد بالأمان ، وتسكين الناس من أهل البلد والغورية، وعسكر باميان ، وأقام الدز محاصراً للقلعة، فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان ، وغيرهم فرحل الدز إلى طريقهم ، وكان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوماً، فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد، فنما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر النوري إلى غياث الدين

بفيروزكوه ؛ فلما وصل أكرمه وعظمه وجعله أمير دار فيروزكوه ، وكان ذلك في صفر سنة ثلاث وستمائة .

وأما الذز فإنه سار إلى طريق جلال الدين ، فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالاً صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين أسيراً وأتي به إلى الدز، فلما رآه ترجل وقبل يده ، وأمر بالاحتياط عليه وعاد إلى غزنة وجلال الدين معه أسير يقول له ليسلم القلعة إليه وإلا قتل من عنده من الأسرى، فلم يسلمها فقتل منهم أربعمائة أسير بازاء القلعة، فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان فأمنه الدز، فلما خرج قبل عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما، وقبض على وزيره لسوء سيرته ، وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة، فلما خرج منها قبض عليه أيضاً، وكتب إلى غياث الدين بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان

في هذه السنة اتفق صاحب مراغة، .وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل على قصد أذربيجان ، وأخذها من صاحبها أبي بكر بن البلهوان لاشتغاله بالشرب ليلاً ونهاراً ، وتركه النظر في أحوال المملكة، وحفظ العساكر والرعايا، فسار صاحب إربل إلى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحوتبريز، فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل إلى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان والري وما بينهما من البلاد، وهو مملوك أبيه البهلوان ، وهو في طاعة أبي بكر إلا أنه قد غلب على البلاد ، فلا يلتفت إلى أبي بكر، فأرسل إليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال ، وكان حينئذ ببلد

الاسماعيلية ، فلما أتاه الخبر سار إليه في العساكر الكثيرة ، فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له : إننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم ، فكنا نعتقد فيك ، الخير والدين ، فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام ، وقتال المسلمين ، ونهب أموالهم لإثارة الفتنة ، فإذا كنت كذلك فمالك عقل تجيء إلينا، وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان إلى خلاط وإلى إربل وأحسب أنك هزمت هذا أما تعلم أن له مماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة أو من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له أضعاف عسكرك ، فالمصلحة أنك ترجع إلى

بلدك ، وإنما أقول لك هذا إبقاء عليك ، ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة، فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه؛ ويسلم عسكره إليه ، وقال له : إنني قد كاتبني جميع أمرائه ليكونوا معي إذا قصدتهم ، فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد إلى بلده وسلك الطريق الشاقة، والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفاً من الطلب ، ثم إن أبا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها، فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر، هي كانت سبب الاختلاف ، وأقطعه أبو بكر مدينتي استوا وأرمية وعاد عنه .

ذكر إيقاع أيتغمش بالإسماعيلية

وفي هذه السنة سار أيتغمش إلى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين ، فقتل منهم مقتلة كبيرة، ونهب وسبى وحصر قلاعهم ، ففتح منها خمس قلاع ، وصمّم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب إربل واستدعاه الأمير أبو بكر، ففارق بلادهم ، وسار إلى أبي بكر كما ذكرناه .

ذكر وصول عسكر خوارزم إلى بلاد الجبل وما كان منهم

وفي هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهليهم وأولادهم ، فوصلوا إلى زنكان ، وكان أيتغمش صاحبها مشغولاً مع صاحب إربل وصاحب مراغة ، واغتنموا خلو البلاد ، فلما عاد مظفّر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار أيتغمش نحو الخوارزمية ، فلقيهم وقاتلهم ، فاشتد القتال بين الطائفتين ، ثم انهزم الخوارزميون وأخذهم السيف ، فقتل منهم وأسر

خلق كثير، ولم ينج منهم إلا الشريد وسُبِي نساؤهم ، وغنمت أموالهم ، وكانوا قد أفسدوا في البلاد بالنهب والقتل ، فلقوا عاقبة فعلهم .

ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب

وفي هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الأرمني صاحب الدروب على ولاية حلب ، فنهب وحرقَ وأسر وسبى ، فجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره ، واستنجد غيره من الملوك ، فجمع كثيراً من الفارس والراجل ، وسار عن حلب نحو ابن ليون ، وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده مما يلي بلد

حلب ، فليس إليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق إليها إلا من جبال وعرة ومضايق صعبة كل فلا يقدر غيره على الدخول إليها لا سيما من ناحية حلب ، فإن الطريق منها متعذر جداً ، فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب ، وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصري ينسب إلى قصر الخلفاء العلويين بمصر لأن أباه منهم أخذه ، فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحاً إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك ، وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دربساك ، ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره ، وبقي في قلة ، فبلغ الخبر الى ابن ليون فجدّ، فوفاه وهو مخف من العسكر، فقاتله واشتد القتال بينهم ، فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه ، وكان بعيداً عنه فطالت الحرب بينهم ، وحمى ميمون نفسه وأثقاله على قلةٍ من المسلمين وكثرة من الأرمن ، فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر، وكذلك أيضاً فعل المسلمون بالأرمن من كثرة القتل ، وظفر الأرمن بأثقال المسلمين ، فغنموها وساروا بها ، فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دربساك ، فلم يشعروا بالحال ، فلم يرعهم إلا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم ، فاقتتلوا أشد قتال ، ثم انهزم المسلمون أيضاً ، وعاد الأرمن إلى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم .

ذكر نهب الكرج أرمينية

في هذه السنة قصدت الكرج في جموعها ولاية خلاط من أرمينية، ونهبوا وقتلوا وأسروا وسبوا أهلها كثيراً ، وجاسوا

خلال الديار آمنين ، ولم يخرج إليهم من خلاط من بمنعهم ، فبقوا متصرفين في النهب والسبي ، والبلاد شاغرة لا مانع لها لأن صاحبها صبي والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند، فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضاً، واجتمعت العساكر الاسلامية التي بتلك الولاية جميعها، وانضاف إليهم من المتطوعة كثير، فساروا جميعهم نحو الكرج ، وهم خائفون ، فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمد البستي وهو من الصالحين ، وكان قد مات ، فقال له : الصوفي أراك ههنا، فقال : جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحاً بمحل البستي من الاسلام ، وأتى إلى مدبر العسكر والقيم بأمره ، وقص عليه رؤياه ، ففرح بذلك ، وقوي عزمه على قصد الكرج ، وسار بالعساكر إليهم فنزل

منزلًا، فوصلت الأخبار إلى الكرج ، فعزموا على كبس المسلمين ، فانتقلوا من موضعهم بالوادي إلى أعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين اذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر، فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادي وأسفله ، وهو واد ليس إليه غير هذين الطريقين ، فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك ، وسقط في أيديهم ، وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيراً وأسروا مثلهم ، ولم يفلت من الكرج الا القليل ، وكفى الله المسلمين شرهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الأمير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتستر، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان ، وكان أميراً على الحاج سنين كثيرة، وكان خيراً صالحاً حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ، ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر، وهو صهر طاشتكين زوج ابنته .

وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق ، وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله ، فأمر بالتوكيل على أبيه فبقي مدّة ثم أطلقه الخليفة، ثم إن سنجرا قتل أخاً له اسمه ....(1).

فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله لاخوته ، فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق ، وركب في بعض الأيام ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه ، فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف ، فسقط إلى الأرض ، فنزل إخوته إليه فقتلوه .

وفيها تجهز غياث الدين خسروشاه صاحب مدينة الروم إلى مدينة طرابزون ، وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته ، فضيق عليه ، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها براً وبحراً ، ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين ، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لأنهم كانوا يتجرون معهم ، ويدخلون بلادهم ، ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها ، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذى كثيراً ، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله .

(1) بياض في الأصل.

وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بابنة ملك الكرج ، وسبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لمّا رأوا من عجزه وانهاكه في الشرب واللعب وماجانسهما وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد، فلما رأى هو أيضاً ذلك ، ولم يكن عنده من الحمية والأنفة من هذه المناجس ما يترك ما هو مصر عليه، وأنه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل إلى الذب عنها بأيره ، فخطب ابنة ملكهم ، فتزوجها فكف الكرج عن النهب والإغارة والقتل ، فكان كما قيل (أغمد سيفه وسل أيره) .

وفيها حمل إلى أزيك خروف وجهه صورة آدمي وبدنه بدن خروف ، وكان هذا من العجائب .

وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد المانداي الواسطي بها . وفيها في شوال توفي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذي ، وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية ، وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما، وكان له دار ضيافة فيها كتب شطرنج ، فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج . وفيها في ذي الحجة توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد، وبقي مدة طويلة معيداً بالنظامية ، وصار مدرّساً بالمدرسة التي أحدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله ، وكان مع علمه صالحاً طلب للنيابة في القضاء ببغداد، فامتنع فالزم بذلك فوليه يسيراً، ثم في بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب ، فنزل ولبس مئزر صوف

غليظ وغيّر ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف ، وأقام به حتى سكن الطلب عنه ، وعاد إلى داره بغير ولاية .

وفيها وقع الشيخ أبو موسى المكي المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات ، وكان رجلًا صالحاً كثير العبادة . وفيها توفي العفيف أبو المكارم عرفة بن علي بن بصلا البندنيجي ببغداد، وكان رجلا صالحاً منقطعاً إلى العبادة رحمه الله .

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

ذكر ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه

في هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدي أخيه بهاء الدين ، وسبب ذلك أن عسكر باميان لمّا انهزموا من الدز وعادوا اليها أخبروا أن علاء الدين وجلال الدين أسرا، وأن الدز ومن معه غنموا ما في أيديهما، فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الأموال كثيراً ومن الجواهر وغيرها من التحف ، وأخذ فيلًا وسار إلى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسيّر معه عسكراً يستخلص به صاحبه ، فلما فارق باميان ، ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابني أخيه جمع أصحابه وقام في البلد فملكه ، وصعد إلى القلعة فملكها، وأخرج اصحاب ابني اخيه علاء الدين وجلال الدين منها، فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه ، فعاد إلى باميان وجمع الجموع الكثيرة، وحصر عباساً في القلعة، وكان مطاعاً في جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده ، وأقام محاصراً إلا أنه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه ، إنما كان معه ما أخذه إلى خوارزم شاه ، فلما خلص جلال الدين من أسر الدز – على ما نذكره – وسار إلى باميان ، فوصل إلى أرصف ، وهي مدينة باميان ، وجاء إليه وزير أبيه الصاحب ، واجتمع به ، وسار إلى القلاع وأرسلوا عباسا المنقلب عليها ولاطفوه ، فسلَّم الجميع إلى جلال الدين ، وقال : إنما حفظتها خوفاً أن يأخذها خوارزم شاه ، فاستحسن فعله وعاد إلى ملكه .

ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان

لما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا، سار عنها إلى ميهنة واندخوي ، وكتب إلى سونج أمير الشكار – نائب غياث الدين محمود بالطالقان – يستميله ، فعاد الرسول خائباً لم يجبه سونج إلى ما أراد منه ، وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه ، فالتقوا

بالقرب من الطالقان ، فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجداً حتى قارب عسكر خوارزم شاه ، فالقى نفسه إلى الأرض ورمى سلاحه عنه وقتل الأرض وسأل العفو فظن خوارزم شاه أنه سكران ، فلما علم . أنه صاح ذمه وسبه ، وقال : من يثق إلى هذا وأشباهه ولم يلتفت إليه ، وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب ، وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول ، وحمله رسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له ، واستناب بالطالقان بعض أصحابه ، وسار إلى قلاع كالوين وبيوار، فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كالوين وقاتله على رؤوس الجبال ، فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه ، فقال : أما أنا فمملوك ، وهذه الحصون فهي أمانة بيدي ، ولا أسلمها إلا إلى صاحبها، فاستحسن خوارزم شاه منه هذا، وأثنى عليه ، وذم سونج ، ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان إلى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهوّنوا الأمر . ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة ، فنزل بظاهرها ، ولم يمتهن ابن خرميل أحداً من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها ، وإنما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة ، فيقطعون الطريق ، وهذه عادة الخوارزميين ، ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا، ورأى الناس عجباً، وذلك أن الخوارزميين لا يذكرون غياث . الدين الكبير والد هذا غياث الدين ،ولا يذكرون أيضاً شهاب الدين أخاه وهما حيان إلا بالغوري صاحب غزنة، وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شانه وقلة شأن غياث الدين هذا ، لا يذكره

إلا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده ، وأما ابن خرميل فإنه سار من هراة في جمع من عسكر خوارزم شاه ، فنزل على اسفرار في صفر، وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها وأرسل إلى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم ، لان امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذهم ، فإذا أخذهم قهراً لا يُبقي على كبير ولا صغير، فخافوا فسلموها في ربيع الأول فأمنهم ولم يتعرض إلى أهلها بسوء، فلما أخذها أرسل إلى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه ، والخطبة له ببلاده ، فأجابه إلى ذلك ، وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك في الخطبة والدخول في طاعته ، فغالطه ، ولم يجبه إلى ما طلب ، ولما كان خوارزم شاه على هراة، عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل ، الذي كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة في العام الماضي ، وسار إلى غياث الدين ، فعاد الآن من عنده ، فلما وصل قال ابن خرميل

لخوارزم شاه : إن هذا يميل إلى الغورية ، ويريد دولتهم ، ووقع فيه ، فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن ، وولى القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي ، وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء بهراة .

ذكر حال غياث الدين مع الدز وأيبك

لما عاد الدز إلى غزنة ، وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين – كما ذكرناه – وكتب إليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه في هذه المدة أشد منه فيما تقدم ، وأعاد غياث الدين إليه يقول : إما أن تخطب لنا وإما أن تعرفنا ما في نفسك ،فلما وصل الرسول بهذا ، أحضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحُّم على شهاب الدين ، فخطب لتاج الدين الدز بغزنة، فلما سمع الناس ذلك ساءهم ، وتغيرت نياتهم ونيات الأتراك الذين معه ، ولم يروه أهلا أن يخدموه وإنما كانوا يطيعونه ظنّاً منهم أنه ينصر دولة غياث الدين ، فلما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول له : بماذا تشتط علي وتتحكم ، هذه الخزانة نحن جمعناها بأسيافنا وهذا الملك قد أخذته ، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة ، وأقطعتهم الإقطاعات، ووعدتني بأمور لم تفِ بها، فإن أنت اعتقتني خطبت لك وحضرت خدمتك ، فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق الدز بعد الامتناع الشديد ، والعزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد ، وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضاً بعتق قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند، وأرسل إلى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفاً كثيراً وجترين ومائة رأس من الخيل

، وأرسل إلى كل واحد منهما رسولا، فقبل الذز الخلع ورد الجمَر وقال : نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب ، وسار رسول أيك إليه ، وكان بفرشابور فد ضبط المملكة ، وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والأذى، والناس معه في أمن ، فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل ، وقتل حافر الفرس ، ولبس الخلعة، وقال : أما الجتر فلا يصلح للمماليك ، وأما العتق فمقبول وسوف اجازيه بعبودية الأبد، وأما خوارزم شاه فإنه أرسل إلى غياث الدين ، يطلب منه أن يتصاهرا ، ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة إلى طاعته ، ويسير معه في العساكر إلى غزنة ، فإذا ملكها من الذز اقتسموا المال أثلاثاً ، ثلثاً لخوارزم شاه وثلثاً لغياث الدين وثلثاً للعسكر ، فأجابه إلى ذلك ، ولم يبق إلا الصلح ، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازندران ، فسار عن هراة إلى مرو .

وسمع الدز بالصلح ، فجزع لذلك جزعاً عظيماً ، ظهر أثره عليه ، وأرسل إلى غياث الدين يقول له : ما حملك على هذا؟ فقال : حملني عليه عصيانك وخلافك علي ، فثار الدز إلى تكياباذ فأخذها ، وإلى بُست وتلك الأعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب سجستان بأمره ، بإعادة الترحم على شهاب الدين ، وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل إلى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما ، فخالفه الناس ، ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره ، وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التتر، مملوك شهاب المدين إلى باميان ليعيدوه إلى ملكه ويزيلوا ابن عمَه عنه ، وزوجه ابنته ، وسار ومعه ايدكز، فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز ، وقال : أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين ، وهو أكبر سناً منكم وأشرف بيتاً، تلبس خلعة هذا المزبون ، يعني الدز ، ودعاه إلى العود معه إلى غزنة، واعلمه أن الأتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز ، فلم يجبه إلى ذلك فقال ايدكز فإني لا أسير معك ، وعاد إلى كابل وهي أقطاعه ، فلما وصل ايدكز إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الدز، يقبح له فعله ، ويأمره بإقامة خطبة غياث الدين ، ويخبره انه قد خطب له في بلاده ، ويقول له : إن لم يخطب له هو ايضاً بغزنة ويعود إلى طاعته وإلا تصده وحاربه ، فلما علم ايدكز ذلك قوقي نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على تصد غزنة ، ووصل أيضا رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف ، ويشير بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب الآن ، وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل امور

خوارزم شاه وغيره ، وأنفذ له ذهباً عليه اسمه ، فكتب أيدكز إلى أيبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وأنه على عزم مشافقة الدز، وهو ينتظر أمره ، فأعاد أيبك جوابه يأمره بقصد غزنة ، فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه ، وإن لم تحصل له القلعة، وقصده الدز انحاز إليه أو إلى غياث الدين أو يعود إلى كابل ، فسار إلى غزنة، وكان جلال الدين قد كتب إلى الدز يخبره خبر أيدكز، وما عزم عليه ، فكتب الدز إلى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه ، فوصلها ايدكز أول رجب من السنة وقد حذروه ، فلم يسلموا إليه القلعة ومنعوه عنها، فأمر اصحابه بنهب البلد، فنهبوا عدة مواضع منه ، فتوسط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية ، وأخذ له من التجار شيئاً آخر وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ، ففرح الناس بذلك ، وكان مؤيد الملك ينوب كل ت الدز بالقلعة .

ووصل الخبر إلى الدز بوصول أيدكز إلى غزنة ووصول رسول أيبك إليه ، ففت في عضده ، وخطب لغياث الدين في تكياباذ، وأسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل إلى غزنة، فلما قاربها ورحل ايدكز عنها إلى بلد الغور، فأقام في تمران ، وكتب إلى غياث الدين يخبره بحاله ، وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن أموال الناس ، فأرسل إليه خلعاً واعتقه وخاطبه بملك الأمراء، ورد عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة، وقال له : أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه ، وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد إلى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه ، وأرسل أموال الناس إلى غزنة إلى قاضي غزنة ، وأمره أن يرد المال المنفذ على أربابه ، فأنهى القاضي الحال إلى الدز ، وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين ، وقال : أنا أسعى في الوصلة بينكما والصلح فأمره بذلك ، فبلغ الخبر إلى غياث الدين ، فأرسل إلى القاضي ينهاه عن المجيء إليه ، وقال: لا تسأل في عبد أبق قد بان فساده واتضح عناده ، فأقام هو والدز وسيّر غياث الدين عسكر إلى أيدكز التتر، فأقاموا معه ، وستر الدز عسكر إلى روين كان – وهي لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الأمراء –فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده ، فنجا وحده إلى غياث الدين ، فاقتضى الحال أن سار غياث الدين إلى بست وتلك الولاية ، فاستردها وأحسن إلى أهلها ، وأطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الأذى.

ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

في هذه السنة توفي حسام الدين أردشير صاحب مازندران ، وخلّف ثلاثة أولاد ، فملك بعده ابنه الأكبر، وأخرج أخاه الأوسط من البلاد ، فقصد جرجان وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد ، وهو ينوب عن أخيه فيها ، فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجه من البلاد، وطلب منه أن ينجده عليه ، ويأخذ له البلاد لسكون في طاعته ، فكتب علي شاه إلى أخيه خوارزم شاه في ذلك ، فأمره بالمسير معه إلى مازندران وأخذ البلاد له ط قامة الخطبة لخوارزم شاه فيها، فساروا عن جرجان ، فاتفق أن حسام الدين صاحب مازندران مات في ذلك الوقت ، وملك البلاد بعده أخوه الأصغر، واستولى على القلاع ، والأموال ، فوصل علي شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها ، وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع ، وأقام بقلعة كورا – وهي التي فيها الأموال والذخائر– وحصر فيها بعد أن ملكوا أسامة البلاد مثل سارية وآمل

وغيرها من البلاد والحصون ، وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت في طاعته وماد عليّ شاه إلى جرجان ، وأقام ابن ملك مازندران في البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التي فيها أخوه الأصغر، وهو يراسله ويستميله ويستعطفه ، وأخوه لا يرد جواباً ولا يزل في حصنه .

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية

في هذه السنة ثالث شعبان ، ملك غياث الدين كيخسرو– صاحب قونية وبلد الروم – مدينة أنطاكية بالأمان ، وهي للروم على ساحل البحر، وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ ، وأطال المقام عليها وهدم عدَّة أبراج من سورها ، ولم يبق إلا فتحها عنوة، فأرسل من بها من الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهي قريبة منها، فاستنجدوهم فوصل إليها جماعة منهم ، فعند ذلك يئس غياث الدين منها، ورحل عنها ، وترك طائفة من عسكره ، بالقرب منها بالجبال التي بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها، فاستمر الحال على ذلك مدة، حتى ضاق بأهل البلد واشتد الأمر عليهم ، فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم ، فظن الفرنج أن الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فاقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين وطلبوهم ليسلموا إليهم البلد فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج ، فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به ، فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين ، وهو بمدينة قونية، فسار إليهم مجدّاً في طائفة من عسكره ، فوصلها ثاني شعبان ، وتقرَّر الحال بينه وبين الروم ،

وتسلم المدينة ثالثه ، وحصر الحصن الذي فيه الفرنج وتسلمه ، وقتل كل من كان به من الفرنج .

ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين إلى خلاط وعوده

وفي هذه السنة، قبض عسكر خلاط على صاحبها، ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان ، وكتب أهل خلاط إلى ناصر الدين ارتق بن أيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن أيلغازي بن أرتق ، يستدعونه إِليها، وسبب ذلك أن ولد بكتمر كان صبياً جاهلاً، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان

أتابكه ومدبر بلاده ، وكان حسن السيرة مع الجند والرعية ، فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة ، واشتغل هو باللهو واللعب وإدمان الشرب ، فكاتب جماعة من أهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه اليهم ،وإنما كاتبوه دون غيره من الملوك لأن أباه قطب الدين أيلغازي كان ابن اخت شاه ارمن بن سكمان ، وكان شاه ارمن قد حلف له الناس في حياته لأنه لم يكن له ولد، فلما تجددتَ بعده هذه الحادثة، تذاكروا تلك الأيمان ، وقالوا : نستدعيه ونملكه فإنه من أهل شاه ارمن ،فكاتبوه وطلبوه إليهم، ثم إن بعض مماليك شاه أرمن اسمه بلبان ، وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان ، سار من خلاط إلى بلاد ماز كرد وملكها، واجتمع الأجناد عليه وكثر جمعه ، وسار إلى خلاط فملكها ، واتّفق وصول صاحب ماردين إليها ، وهو يظن أن أحداً لا يمتنع عليه ويسلمون إليه المدينة ، فنزل قريباً من خلاط عدة أيام ، فأرسل إليه بلبان يقول له : إن أهل خلاط قد اتهموني بالميل إليك ، وهم ينفرون من العرب ، والرأي أنك ترحل عائداً مرحلة واحدة وتقيم ، فإذا تسلمت البلد سلمته إليك لأنني لا يمكنني أن أملكه أنا ، ففعل صاحب ماردين ذلك ، فلما أبعد عن خلاط أرسل إليه يقول له : تعود إلى بلدك ، وإلا جئت إليك وأوقعت بك وبمن معك ، وكان في قلة من الجيش ، فعاد إلى ماردين ، وكان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة، قد أرسل إلى صاحب ماردين لما سمع أنه يريد قصد خلاط يقول له : إن سرت إلى خلاط قصدت بلدك ، وانما

خاف ان يملك خلاط فيقوى عليهم ، فلما سار إلى خلاط جمع الأشرف العساكر ، وسار إلى ولاية ماردين ، فاخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجيء الأموال إليه ، فلما فرغ منه عاد إلى حران ، فكان مثل صاحب ماردين كما نيل : (خرجت النعامة تطلب قرنين عادت بلا أذنين) .

وأما بلبان فإنه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط ، وضيق على أهلها وبها ولد بكتمر، فجمع من عنده بالبلد من الأجناد والعامة ، وخرج إليه ، فالتقوا ، فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه ، وعاد إلى الذي بيده من البلاد، وهو ملان كرد وأرجيش وغيرهما من الحصون ، وجمع العساكر واستكثر منها ، وعاود حصار خلاط ، وضيق على أهلها ، فاضطرهم إلى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ، ثم قبضوا مليه في القلعة وارسلوا إلى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسئموا إليه البلد وابن بكتمر،

واستولى على جميع أعمال خلاط ، وسجن ابن بكتمر في قلعة هناك ، واستقر ملكه ، فسبحان من إذا أراد أمراً هيا أسبابه ، بالأمس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوصف بن أيوب ، فلم يقدر أحدهما عليها، والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والأموال ، فيملكها صفواً عفواً، ثم إن نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط ، وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها، منها حصن موسى ومدينته ، فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته ، فطمع وأوغل في القرب ، فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله ، فهزمه ، ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى ، وعاد إلى ميافارقين .

ذكر ملك الكرج مدينة قرص وموت ملكة الكرج

في هذه السنة ملك الكرج حصن قرس ، من أعمال خلاط ، وكانوا قد حصروه مدة طويلة، وضيقوا على من فيه ، وأخذوا دخل الولاية عدة سنين ، وكلّ من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى في راحة تصل إِليهم ، وكان الوالي بها يواصل رسله في طلب النجدة وإزاحة من عليه من الكرج ، فلا يجاب له دعاء ، فلما طال الأمر عليه ورأى أن لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير وأقطاع يأخذه منهم ، وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد، فإنا لله لانا إليه راجعون ، ونسأل الله أن يسهل للإسلام وأهله نصراً من عنده ، فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد، ثم إن الله تعالى نظر إلى قلة ناصر

الاسلام فتولاه ، فأمات ملكة الكرج ، واختلفوا فيما بينهم، وكفى الله شرهم إلى آخر السنة .

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان

في هذه السنة في رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر، وهو كان المتولي لتلك الأعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لأنه زوج ابنة طاشتكين إلى جبال كرستان ، وصاحبها يعرف بابي طاهر، وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان ، فقاتلوا أهلها، وعادوا منهزمين ، وسبب ذلك أن مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه ، كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي ، واجتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ، ولحق بأبي طاهر صاحب كرشان ، فكرمه وعظمه وزوجه ابنته ، ثم ترفي أبو طاهر، فقوي أمر قشتمر

وأطاعه أهل تلك الولاية ، فأمر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ، ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار إليه ، فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ، ويخرج إلى الخروج عن العبودية، ولم يقبل عذره ، فجمع أهل تلك الأعمال ، ونزل إلى العسكر فلقيهم فهزمهم ، وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين أيتغمش صاحب اصبهان وهمذان والري يعرفهما الحال ، ويقول : إني لا قوة لي بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد، وعادوا إلى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال فأجاباه إلى ما طلب ، فقوي جنابه واستمر على حاله .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل صبيّ صبيّاً آخر ببغداد، وكانا يتعاشران ، وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة، فقال احدهما للآخر، الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك ، وأهوى نحوه بها فدخلت في جوفه فمات ، فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل ، فلما أرادوا قتله طلب دواة وبيضاء وكتب فيها من قوله :

قَدِمْتَ على الكريمِ بغيرِ زادٍ من الَأعْمالِ بالقلبِ السليمِ

وسوءُ الظن أَنْ تعتد زاداً إذا كانَ القدومُ على كريم

وفيها حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة البخاري رئيس الحنفية ببخارا ، وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدّي الخراج إلى الخطا، وينوب عنهم

في البلد، فلما حجّ لم تحمد سيرته في الطريق ولم يصنع معروفاً، وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارا، فلما عاد لم يلفت إليه لسوء سيرته مع الحاج ، وسقاه الحجاج صدر جهنم .

وفيها في شوال مات شيخنا أبو الحرم مكي بن ريّان بن شبة النحوي المقري بالموصل ، وكان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات ، لم يكن في زمانه مثله وكان ضريراً، وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة ، وكان من خيار عباد الله وصالحيهم ، كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل .

وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرخوم ، ومضى في طائفة من اصحابه إلى الشام ، وسار الحاج ومعهم الجند، فوصلوا سالمين ، ووصل هو إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، فأقطعه أقطاعاً كثيراً بمصر، وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان وستمائة في جمادى الأولى ، فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود، فأجيب إليه ، فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة .

وفيها في جمادى الآخرة، توفي ابو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني ، المعروف بابن النظروني في مارستان ببغداد، وكان قد مضى إلى المايورقي في رسالة بافريقية ، فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية ، ففرقها جميعها في بلده على معارفه وأصدقائه ، وكان فاضلا خيراً، نعم الرجل رحمه الله ، وله شعر حسن ، وكان قيماً بعلم الأدب ، وأقام بالموصل مدة، واشتغل على الشيخ أبي الحرم ، واجتمعتُ به كثيراً عند الشيخ أي الحرم –رحمه الله –.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن وإصلاحها

في هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا، وسبب ذلك أنَّ الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم على أهلها، ولهم في كل مدينة نائب يجبي إليهم الأموال ، وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا ، وكان مقامهم بنواحي أوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحي ، فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارا ، ويلقب خان خانان – يعني سلطان السلاطين – وهو من أولاد الخانية عريق النسب في الاسلام ، والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين ، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له : إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك ، من سعة الملك ، وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم ، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة، فأجابه إلى ذلك ، وقال : أخاف أنكم لا توفون لي ، فسيَّر إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه ، وضمنوا عنه الصدق والثبات على بذل ، وجعلوا عنده رهائن ، فشرع في إصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها ، فوك أخاه علي شاه طبرستان مضافة إلى جرجان ، وأمر بالحفظ والاحتياط ، وولى الأمير كزلك خان ، وهو من أقارب أمه وأعيان دولته بنيسابور ،وجعل صه عسكراً ، وولى الأمر جلدك مدينة الخام ، وولى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن ،

وكان هذا أمين الدين حمالًا ، ثم صار أكبر الأمراء ، وهو الذي ملك كرمان –على ما نذكره إن شاء الله تعالى –وأمّر الأمير الحسين على هراة، وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية، وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور

وكرمسير، واستناب في مرو وسرخس ، وغيرهما من خراسان نواباً ، وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط ، وجمع عساكره جميعها وسار إلى خوارزم ، وتجهز منها وعبر جيحون ، واجتمع بسلطان سمرقند ، وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤوا إليه ، فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات ، فتارة له وتارة عليه .

ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه

ثم إن خرميل صاحب هراة رأى سؤ معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم إلى الأموال ، فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولاً إلى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا ، فعظم عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا، فكتب إليه يتحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم ، وقال له : إنني قد أمرت عز الدين جلدك ابن طغرل صاحب الخام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله ، وحسن سيرته ، وأرسل إلى جلدك يأمره بالمسير إلى هراة، وأسرّ إليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل ، ولو أول ساعة يلقاه ، فسار جلدك في ألفي فارس ، وكان أبوه طغرل أيّام السلطان سنجر والياً بهراة ، فهوى إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان ، فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه ، . وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب ، وكان كبيراً قد حنكته التجارب ، فقال لابن خرميل : لا تخرج إلى لقائه ، ودعه يدخل إليك منفرداً ، فإنني أخاف أن يغدر بك ، وأن يكون خوارزمشاه أمر بذلك ، فقال : لا يجوز أن يقدم مثل هذا الأمير ولا ألتقيه ، وأخاف أن يضطغن ذلك على خوارزمشاه وما أظنه يتجاسر

عليّ ، فخرج إليه الحسين بن خرميل ، فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء، وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه ، فاختلطوا بهما، وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه ، وقبضوا عليه ، فانهزم اصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال ، فأمر بإغلاق الباب والطلوع إلى الأسوار، واستعد للحصار، ونزل جلدك على البلد، وأرسل إلى الوزير يبذل له الأمان ويتهدده إن لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري ، وقال لجلدك : لا أسلم البلد إليك ، ولا إلى الغادر ابن خرميل ، وإنما هو لغياث الدين ولأبيه قبله ، فقدموا ابن خرميل إلى السور، فخاطب الوزير وأمره بالتسليم ، فلم يفعل فقتل ابن خرميل ، وهذه عاقبة الغدر، فقد تقدَم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره ، وكفرانه الإحسان

ممن أحسن إليه ، فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزمشاه بجلية الحال ، فأنفذ خوارزمشاه إلى كزلك خان ، وإلى نيسابور أمين الدين أبي بكر صاحب زوزن ، يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها ، فسارا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة، وراسلوا الوزير بالتسليم ، فلم يلتفت إليهم وقال : ليس لكم من المحل ما يسلم إليكم مثل هراة ، لكن إذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها إليه ، فقاتلوه وجدوا في قتاله ، فلم يقدروا عليه ، وكان ابن خرميل قد حصن هراة ، وعمل لها أربعة أسوار محكمة، وحفر خندقها وشحنها بالميرة ، فلما فرغ من كل ما أراد ، قال : بقيت أخاف على هذه المدينة شيئاً واحداً ، وهو ان تسكر المياه التي لها أياماً كثيرة، ثم ترسل دفعة واحدة، فتخرق أسوارها، فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل ، فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيراً، ثم اطلقوها على هراة، فأحاطت بها، ولم تصل إلى السور لأن أرض المدينة مرتفعة، فامتلأ الخندق ماء، وصار حولها وحل ، فانتقل العسكر عنهم ، ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة، وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلىء الخندق ماء، ويمنع الوحل من القرب عن المدينة، فأقاموا مدّة حتى نشف الماء، فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل .

ونعود إلى قتال خوارزمشاه الخطا وأسره ، وأما خوارزمشاه فإنه دام القتال بينه وبين الخطا ، ففي بعض الأيام اقتتلوا ، واشتد القتال ودام بينهم ، ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة ، وأسر كثير منهم ، وقتل كثير، وكان من جملة

الأسرى خوارزمشاه ، وأسر معه أمير كبير يقال له : فلان بن شهاب الدين مسعود، أسرهما رجل واحد، ووصلت العساكر الاسلامية إلى خوارزم ، ولم يروا السلطان معهم ، فأرسلت أخت كزلك خان صاحب نيسابور، وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال ، فلما أتاه الخبر سار عن هراة ليلًا إلى نيسابور، وأحس به الأمير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن ، فأراد هو ومن عنده من الأمراء منعه ، مخافة أن يجري بينهم حرب ، يطمع بسببها أهل هراة فيهم ، فيخرجون اليهم فيبلغون منهم ما يريدونه ، فامسكوا عن معارضته ، وكان خوارزمشاه قد خرَّب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمّره ، وأدخل اليها الميرة واستكثر من الجند، وعزم على الاستيلاء على خراسان إن صح فقد السلطان ، وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه علي لشاه ، وهو بطبرستان فدعا إلى نفسه وتطع خطبة أخيه ، واستعد لطلب السلطنة ، واختلطت خراسان اختلاطاً عظيماً ، وأما السلطان خوارزمشاه فإنه لما

أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود : يجب ان تدع السلطنة في هذه الأيام وتصير خادماً لعلي احتال في خلاصك ، فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ، ويخلعه ثيابه وخفه ويعظمه ، فقال الرجل الذي أسرهما لابن مسعود : أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت ؟ فقال : أنا فلان وهذا غلامي ، فقام إليه وأكرمه وقال : لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك ، ثم تركه أياماً، فقال له ابن مسعود : إني خاف ان يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم فيظنون أني قتلت ، فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ، ثم يقتسمون مالي فأهلك ، واحب أن تقرر عليّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك ، فقرر عليه مالا ، وقال له : أريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابي إلى اهلي ويخبرهم بعافيتي ويحضر معه من يحمل المال ثم قال : إِن اصحابكم لا يعرفون أهلنا ، ولكن هذا غلامي أثق به ويصدقه أهلي فاذن له الخطائي بإنفاذه فسيره وأرسل معه الخطافي فرساً وعدة من الفرسان يحمونه ، فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ، ووصل خوارزمشاه إلى خوارزم ، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد ، وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور ، وبما صنع أخوه علي شاه بطبرستان .

ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان

لما وصل خوارزمشاه إلى خوارزم ، أتته الأخبار بما فعله كزلك خان وأخوه علي شاه وغيرهم ، فسار إلى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت ، ووصل هو إليها في اليوم السادس ومعه ستة فرسان ، وبلغ كزلك خان وصوله ، فاخذ أمواله وعساكره ،وهرب نحو العراق ، وبلغ أخاه علي شاه فخافه ،

وسار على طريق قهستان ملتجئا إلى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه ، فتلقاه وأكرمه وأنزله عنده ، وأما خوارزم شاه ، فانه دخل نيسابور، وأصلح أمرها، وجعل فيها نائباً، وسار إلى هراة، فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه ،وأحسن إلى أولئك الأمراء ، ووثق بهم لأنهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا، ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير، فأرسل خوارزمشاه إلى الوزير يقول له : إنك وعدت عسكري أنك تسلم المدينة إذا حضرت فسلم ، فقال : لا أفعل لأني أعرف أنكم غدَارون لا تبقون على أحد، ولا أسلم البلد إلا إلى غياث الدين محمود، فغضب خوارزمشاه من ذلك ، وزحف إليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من أهل هراة، وقالوا هلك الناس من الجوع والقلة، وقد تعطلت علينا

معايشنا وقد مضى سنة وشهر، وكان الوزير وعد تسليم البلد إلى خوارزمشاه إذا وصل إليه ، وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ، ويجب أن نحتال في تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التي نحن فيها، فانتهى ذلك إلى الوزير، فبعث إليهم جماعة من عسكره ، وأمره بالقبض عليهم ، فمضى الجند إليهم ، فثارت فتنة في البلد عظم خطبها، فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه ، فمضى لذلك ، فكتب من البلد إلى خوارزمشاه بالخبر، وزحف إلى البلد وأهله مختلطون ، فخربوا برجين من السور، ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير، فقتله خوارزمشاه ، وملك البلد، وذلك سنة خمس وستمائة، وأصلح حاله وسلمه إلى خاله أمير ملك ، وهو من أعيان امرائه ، فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه ، وأما ابن شهاب الدين مسعود ، فإنه أقام عند الخطا مديدة ، فقال له : الذي استأسره يوما إن خوارزمشاه قد عدم ، فإيش عندك من خبره فقال له :أما تعرفه ؟ قال : لا، قال : هو اسيرك الذي كان عندك . فقال : لم لا عرفتني حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه إلى مملكته ، قال : خفتكم عليه ، فقال الخطائي : سر بنا إليه ، فسار إليه ، فأكرمهما وأحسن إليهما ، وبالغ في ذلك .

ذكر قتل غياث الدين محمود

لمّا سئم خوارزمشاه هراة إلى خاله أمير ملك ، وسار إلى خوارزم ، أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري صاحب الغور وفير وزكوه ، وأن يقبض عليه وعلى أخيه علي شاه بن خوارزمشاه ، ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين ، فسار أمير ملك إلى فيروزكوه ، وبلغ ذلك

إلى محمود، فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان ، فأعطاه ذلك ، فنزل إليه محمود، فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزمشاه ، فسألاه أن يحملهما إلى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه ، فأرسل إلى خوارزمشاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتلا في يوم واحد، واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه ، وذلك سنة خمس وستمائة أيضا، وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهاداً ، وكان محمود هذا عادلًا حليماً كريماً من أكرم الملوك أخلاقاً – رحمه الله تعالى –.

ذكر عود خوارزمشاه إلى الخطا

لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه ، وعبر نهر جيحون ، جمع له الخطا

جمعاً عظيماً، وساروا إليه ،والمقدم عليهم شيخ دولتهم ، القائم مقام الملك فيهم المعروف بطاينكوه ، وكان عمره قد جاوز مائة سنة، ولقي حروباً كثيرة، وكان مظفراً حسن التدبير والعقل ، واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند، وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة، فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا ، فانهزم الخطا هزيمة منكرة، وتتل منهم وأسر خلق لا يحص ، وكان فيمن أسر طاينكوه مقدمهم ، وجيء به إلى خوارزمشاه ،فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره إلى خوارزم ، ثم قصد خوارزمشاه إلى بلد ما وراء النهر، فملكها مدينة مدينة، وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند، وجعل نوابه فيها، وجماد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، وكان من أحسن الناس صورة، فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا إليه ، فزوجه خوارزمشاه بابنته ، ورده إلى سمرقند ، وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا.

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه، وأقام معه نحو سنة، فرأى سؤ سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند، ليسلمها إليه ، وبعود إلى طاعته ، وأمر بقتل كل من لم في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا، وأخذ أصحاب خوارزمشاه ، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق كما يعلق القصاب اللحم ، وأساء غاية الاساءة، ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه ، فأغلقت الأبواب ، ووقفت بجواريها تمنعه ،

وأرسلت إليه تقول : أنا امرأة، وقتل مثلي قبيح ، ولم يكن مني اليك ما استوجب به هذا منك ، ولعل تركي احمد عاقبة فاتق الله فيّ ، فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف في نفسها، ووصل الخبر إلى خوارزمشاه ، فقامت قيامته وغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك ، وقالت : إن هذا قد أتاه الناس من أقطار الأرض ، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل، فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى ، وأمر عساكره بالتجهيز إلى ما وراء النهر، وسيرهم أرسالًا كلَّما تجهَّز جماعة عبروا جيحون ، فعبر منهم خلق كثير لا يحصى ، ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ، ونزل على سمرقند، وأنفذ إلى صاحبها يقول له : قد فعلت ما لم يفعله مسلم ، واستحللت من دماء المسلمين مما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر، وقد-عفا الله عما

سلف ، فاخرج من البلاد وامضِ حيث شئت ، فقال :لا اخرج وافعل ما بدا لك ، فأمر عساكره بالزحف ، فأشار عليه بعض من معه بأن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلدان ، يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار، فيمنع من نهبه والتطرق إليهم بسوء ،فإنهم غرباء ، وكلهم كارهون لهذا الفعل ، فأمر بعض الأمراء بذلك ، وزحف ونصب السلاليم على السور، فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد، وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام ، فيقال : إنهم قتلوا منهم مائتي ألف إنسان ، وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء ، فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمي الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف إلى القلعة، فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفاً، فأرسل يطلب الأمان ، فقال :لا أمان لك عندي ، فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها، وأحضروه عند خوارزمشاه ، فقبل الأرض فطلب العفو، فلم يعف عنه ، وأمر بقتله فقتل صبراً وقتل معه جماعة من أقاربه ، ولم يترك أحداً ممن ينسب إلى الخانية ، ورتب فيها رفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم .

ذكر الوقعة التي أفنت الخطا

لما فعل خوارزم شاه بالخطا – ما ذكرناه –مضى من سلم منهم إلى ملكهم ، فإنه لم يحضر الحرب ، فاجتمعوا عنده ، وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديماً ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب ، فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلي خان ، فلما رأى ملك الخطا

ذلك أرسل إلى خوارزمشاه يقول له : أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه ، وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به ، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك ، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ، ونقنع بما في أيدينا وأرسل إليه كشلي خان ملك التتر يقول : إن هؤلاء الخطا اعداؤك وأعداء آبائك واعداؤنا فساعدنا عليهم ، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ، ونقنع بالمواضع التي ينزلونها، فأجاب كلا منهما أنني معك ومعا ضدك على خصمك ، وسار بعساكره إلى أن نزل قريباً من الموضع الذي تصافوا فيه ، فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما، فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها وتواقع الخطا والتتر، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة، فمال

حينئذ خوارزمشاه ، وجعل يقتل ويأسر وينهب ، ولم يترك احداً ينجو منهم ، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال ، ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة تحصنوا فيه ، وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة ، وساروا في عسكره ، وأنفذ خوارزمشاه إلى كشلي خان ملك التتر يمن عليه بأنه حضر لمساعدته ، ولولاه ما تمكن من الخطا ، فاعترف له كشلي خان بذلك مدة ، ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا، وقال : كما اتّا اتّفقنا على ابادتهم ينبغي أن نقسم بلادهم ، فقال : ليس لك عندي غير السيف ، ولستم بأقوى من الخطا شوكة، ولا اعز ملكاً، فإن قنعت بالمساكنة، وإلا سرت إليك وفعلت بك شراً مما فعلت بهم ، وتجهز وسار حتى نزل قريباً منهم ، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له به فكان يراوغه ، فإذا سار إلى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها، وإذا سمع أن طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها، فأرسل إليه كشلي خان يقول له : ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص ، وإلا إن كنت سلطانا كما تقول : فيجب أن نلتقي ، فإما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي ، وإما أن أفعل أنا بك ذلك ، فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب ، لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها، ولا احسن عمارة بالجلاء منها واللحاق ببلاد الاسلام ، ثم خربها جميعها خوفاً من التتر أن يملكوها، ثم اتّفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا، وملكهم جنكزخان النهرجي على كشلي خان التتري الأول ،

فاشتغل بهم كشلي خان عن خوارزمشاه ، فخلا وجهه فعبر النهر إلى خراسان .

ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب – مدينة خلاط ، وسبب ذلك أنّه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه ، فلما كان من ملك بلبان خلاط – ما ذكرناه قصد هو مدينة موش ، وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها ، وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه ، فلما ملكها طمع في خلاط ، فسار اليها فهزمه بلبان – كما ذكرناه أيضا – فعاد إلى بلده ، وجمع وحشد، وسيَّر إليه أبوه جيشاً فقصد خلاط ، فسار إليه بلبان فتصافا واقتتلا فانهزم بلبان ، وتمكَّن نجم الدين من البلاد ، وازداد منها ، ودخل بلبان خلاط واعتصم بها ، وأرسل رسولا إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان ، وهو صاحب ارزن الروم يستنجد. على نجم الدين ، فحضر

بنفسه ومعه عسكره ، فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرا موش ، فاشرف الحصار على أن تملك ، فغدر ابن قلج ارسلان بصاحب خلاط وقتله طمعاً في البلاد، فلما قتله سار إلى خلاط فمنعه اهلها عنها فسار إلى ملازكرد فرده أهلها ايضا، وامتنعوا عليه فلما لم يجد في شيء من البلاد مطمعاً عاد إلى بلده ، فأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين يستدعونه اليهم ليُملكوه ، فحضر عندهم وملك خِلاط وأعمالها سوى اليسير منها ، وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه ، وكذلك ايضا خافه الكرج وكرهوه ، فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ، ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها، فلقي المسلمون من ذلك اذى شديداً ، واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان ، وهو من اعظم الحصون وامنعها ، وعضوا على نجم الدين ، واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش ، فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل ، يعرفه الحال ، ويطلب منه نجدة وان يمده بعسكر، فسير إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل في عسكر، فاجتمعا في عسكر كثير، وحصرا قلعة وان ، وبها الخلاطية وجدوا في قتالهم ، فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا، وخرجوا منها وتسلمها نجم الذين ، واستقر ملكه بخلاط وأعمالها ، وعاد أخوه الاشرف إلى بلده حرّان والرها .

ذكر غارات الفرنج بالشام

وفي هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس ، وحصن الأكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولاياتها، ونازلوا مدينة حمص ، وكان جمعهم كثيراً، فلم يكن لصاحبها أسد الدين

شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة، ولا يقدر على دفعهم ومنعهم ، فاستنجد الظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ، فلم ينجده أحد إلا الظاهر، فانه سيَّر له عسكراً اقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ، ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة، وقصد مدينة عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إِطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ، ثمّ سار إلى حمص ، فنزل على بحيرة قدس ، وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ، ودخل إلى بلاد طرابلس ، وحاصر موضعا يسمى القليعات ، وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه ، وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه ، وتقدم إلى طرابلس ، فنهب وأحرق وسبي وغنم وعاد إلى بحيرة قدس ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج ني الصلح ، فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء، وطلبت العسكر الشرقية العود إلى بلادهم قبل البرد، فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها،

وعاد إلى دمشق ، فشتى بها ، وعادت عساكر ديار الجزيرة إلى اماكنها، وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج اخذوا عدّة قطع من اسطول مصر واسروا من فيها فأرسل العادل إلى صاحب عكا في رد ما أخذوا، ويقول : نحن صلح فلم غدرتم باصحابنا، فاعتذر بان أهل قبرس ليس لي عليهم حكم ، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية، ثم إن أهل قبرس ساروا إلي القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم ، تعذرت عليهم اقوات ، وعاد حكم قبرس إلى صاحب عكا، وأعاد العادل مراسلته ، فلم ينفصل حال ، فخرج بالعساكر، وفعل بعكا – ما ذكرناه – فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب وأرسل الأسرى .

ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها

لما تم ملك خلاط وأعمالها للملك الأوحد نجم الدين بن العادل سار عنها إلى ملازكرد، ليقرر قواعدها أيضا، ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها ، فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر، فأخرجوه من عندهم وعصوا، وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحد ، ونادوا بشعار شاه أرمن ، وإن كان ميتاً يعنون بذلك رد الملك إلى اصحابه ومماليكه ، فبلغ الخبر إلى الملك الأوحد، فعاد إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة، فقوي بهم وحصر خلاط فاختلف اهلها، فمال إليه بعضهم حسداً للآخرين؛ فملكها وقتل بها خلقاً كثيراً من أهلها، وأسر جماعة من الأعيان ، فسيرهم إلى ميافارقين ، وكان كل يوم يرسل إِليهم ، فيقتل منهم جماعة ، فلم يسلم إِلا القليل ، وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان ، وكان الحكم إليهم ، وكفى الناس شرهم ، فإنهم كانوا قد صاروا

يقيمون ملكاً ويقتلون آخر، السلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم .

ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة

في هذه السنة ملك الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان مدينة مراغة، وسبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراسنقر، مات هذه السنة، وولي بعده ابن له طفل ، وتام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لأبيه ، فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعاً كثيراً، فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر، فقاتلهم ذلك الأمير، فانهزموا

واستقر ملك ولد علاء الدين إلا أنه لم تطل أيامه حق توفّي في أول سنة خمس وستمائة ،كل وانقرض أهل بيته ، ولم يبق منهم أحد ، فلما توفّي مسار نصرة الذين أبو بكر من تبريز إلى مراغة، فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين ، فإنها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن ، فامتنع بها على الأمير أبي بكر.

ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت كبير، فقدم بغداد، لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري ، ولقي من الخليفة قبولًا، فجعله نائب الوزارة ، ثم جعله وزيراً ، وحكم ابنه صاحب المخزن ، فلمّا كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه ، وكان سبب عزله أنه اساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة، فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع ، فإنه هرب من يديه إلى الشام سنة ثلاث وستمائة، فارق الحاج بالمرخوم ، وأرسل يعتذر ، ويقول : إن الوزير يريد أن لا يبقي في خدمة الخليفة أحداً من مماليكه ، ولا شك أنه يريد أن يدعي الخلافة ، وقال الناس في ذلك فاكثروا ، وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم :

ألا مبلغاً عني الخليفةَ أحمداً توق وقيت السوء ما أنت صانعُ
وزيرك هذا بينَ أمرينِ فِيهمَا فعالُكَ يا خيرَ البريَّةِ ضائعُ
فإنْ كانَ حقاً مِنْ سلالةِ أحمدٍ فهَّذا وزيد في الخِلافةِ طامحُ
وإنْ كانَ فيما يدعي غيرَ صادقٍ فأضيع ما كانت لديه الصنائعُ

فعزله وقيل ، في سبب ذلك غيره ولما عزل ، أرسل إلى الخليفة يقول : إنني قدمت إلى ههنا، وليس لي دينار ولا درهم

، وقد حصل لي من الأموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار، ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ، ويمكَّن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين ، فأجابه إننا ما أنعمنا عليك بشيء ، فنوينا إِعادته ، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله وأماننا، لم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك ، غير أن الأعداء قد اكثروا فيك فاختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً محترماً ، فاختار ان يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه ، ففعل به ذلك ، وكان حسن السيرة قريباً إلى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفاً عن

أموالهم غير ظالم لهم ، فلما قبض ، عاد أمير الحاج من مصر في الخدمة العادلية ، وعاد أيضاً قشتمر، واقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطي ، إلا أنه لم يكن متحكماً .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر، وكنت حينئذ بالموصل ، ولم تكن بها شديدة، وجاءت الأخبار من كثير من البلاد، بأنها زلزلت ، ولم تكن بالقوية .

وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جمِيع حق البيع ، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من الموكس من سائر المبيعات ، وكان مبلغاَ كثيراً، وكان سبب ذلك أن بنتاً لعز الدين نجاح شرابي الخليفة توفيت ، فاشترى لها بقرة ، لتذبح ، ويتصدق بلحمها عنها ، فرفعوا في حساب ثمنها مؤنة البقرة، فكانت كثيرة، فوقف الخليفة على ذلك ، وأمر باطلاق المؤنة جميعها .

وفيها في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد، ليفطر فيها الفقراء، وسميت دور الضيافة، يطبخ فيها اللحم الضان والخبز الجيد، عمل ذلك في جانبي بغداد، وجعل في كل دار من يوثق بأمانته ، وكان يعطي كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبيخ واللحم ، ومنا من الخبز، فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة .

وفيها، زادت دجلة زيادة كثيرة، ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذي ، فخيف على البلد من الغرق ، فاهتم الخليفة بسد الخندق ، وركب فخر الدين نائب الوزارة

وعز الدين الشرابي ، ووقفا ظاهر البلد ، فلم يبرحا حتى سد الخندق .

وفيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله بن الفرج المكبر بجامع الرصافة، وكان عالي الاسناد، روي عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل ، وله إسناد حسن ، وقدم الموصل ، وحدث بها وبغيرها .

ثم دخلت سنة خمس وستمائة

ذكر ملك الكرج أزجيش وعودهم عنها

في هذه السنة سارتي –الكرج في جموعها إلى ولاية خلاط ، وقصدوا مدينة أزجيش ، فحصروها وملكوها عنوة، ونهبوا جميع ما بها من الأموال والأمتعة وغيرها، وأسروا وسبوا أهلها ، وأحرقوها وخربوها بالكلية ، ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وكان نجم الدين أيوب صاحب أرمينية بمدينة خلاط ، وعنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب ، منها : كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف اليهم من القتل والأذى، وخاف ان يخرج منها فلا يمكن من العود اليها، فلما لم يخرج إلى قتال الكفار عادوا إلى بلادهم سالمين ، لم يذعرهم ذاعر، وهذا جميعه ، وان كان عظيماً شديداً على الاسلام وأهله ، فإنه يسير بالنسبة إلى ما كان – مما نذكره ، سنة أربع عشرة إلى سنة سبع عشرة وستمائة .

ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود

في هذه السنة قتل سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر، وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازي ، ولقد سلك ابنه ني قتله طريقاً عجيباً يدل على مكر ودهاء، وسبب ذلك أن سنجر كان سيء السيرة بع الناس كلهم ، من الرعية والجند والحريم والأولاد ، وبلغ من قبيح فعله مع أولاده أنه سير ابنيه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح من بلد الزوزان ، وأخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة اسكنه فيها، ووكل به من يمنعه من الخروج ، وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية، فكان يدخل إليه

منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذي ، فني بعض الأيام اصطاد حية وسيرها في منديل إلى أبيه لعله يرق له ، فلم يعطف عليه ، فاعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها، واختفى ووضع إنسانا كان يخدمه ،

فخرج من الجزيرة، وقصد الموصل ، وأظهر أنه غازي بن سنجر، فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثياباً وخيلاً، وأمره بالعود، وقال : إن أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعلمها، ويقبح ذكرنا، فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ،ونقع معه في صدام لا ينادى وليده ، فسار إلى الشام . وأما غازي بن سنجر فإنه تسلق إلى دار أبيه ، واختفى عند بعض سراريه ، وعلم به أكثر من بالدار، فسترت عليه ، بغضا لأبيه ، وتوقعا للخلاص منه لشدّته عليهن ، فبقي كذلك ، وترك أبوه الطلب له ظناً منه أنه بالشام ، فاتفق أن أباه في بعض الأيام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه ، فكان يقترح على المغنين أن يغنوا في الفراق وما شاكل ذلك ، ويبكي ويظهر في قوله قرب الأجل ودنو الموت وزوال ما هو فيه ، فلم يزل كذلك إلى آخر النهار، وعاد إلى داره ، وسكر عند بعض حظاياه ، ففي الليل دخل الخلاء، وكان ابنه عند تلك الحظية، فدخل إليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه وتركه ملقى ، ودخل الحمام ، وقعد يلعب مع الجواري ، فلو فتح باب الدار، وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن ، ولم يشك في الملك ، فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب ، وأعلم أستاذ دار سنجر الخبر، فاحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك ، وأغلق الابواب على غازي ، واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه ، وأرسل إليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود، فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي ، ودخلوا عليه ليأخذوه ، فمانعهم عن نفسه ، فقتلوه وألقوه على باب الدار،

فأكلت الكلاب بعض لحمه ، ثم دفن باقيه ، ووصل محمود إلى البلد وملكه ولقب بمعز الدين لقب أبيه ، فلما استقر أخذ كثيراً من الجواري اللواتي لأبيه فغرقهن في دجلة .

ولقد حدثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جواري مغرقات ، منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار، فلم أعلم سبب ذلك الحريق ، حتى حدثتني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه أن محموداً كان يأخذ الجارية ، فيجعل وجهها في النار، فإذا احترقت ألقاها في دلجة، وباع من لم يغرقه منهن ، فتفرق أهل تلك الدار أيدي سبا ، وكان سنجرشاه ، قبيح السيرة ظالماً غاشماً كثير المخاتلة ، والمواربة والنظر في دقيق الأمور وجليلها، لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم ، من أخذ الأموال والأملاك والقتل والاهانة ، وسلك معهم طريقاً وعراً ، من قطع الألسنة والأنوف والآذان ،

وأما اللحى ، فانه حلق منها ما لا يحصى ، وكان جل فكره في ظلم يفعله ، وبلغ من شدة ظلمه ، أنه كان اذا استدعى إنساناً ليحسن إليه لا يصل ، إلا وقد قارب الموت من شدًة الخوف ، واستعلى في أيامه السفهاء، ونفقت سوق الأشرار والساعين بالناص ، شرب البلد، وتفرق أهله لا جرم سلط الله عليه أقرب الخلق إليه ، فقتله ، ثم قتل ولله غازي ، وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودوداً، وجرى في داره من التحريق ، والتغريق والتفريق ما ذكرنا بعضه ، ولورمنا شرح قبح سيرته لطال ، والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ثاني المحرم توفي أبو الحسن ورام بن بن أي فراس الزاهد بالحلة السيفية، وهو منها، وكان صالحاً وفي صفر توفي الشيخ مصدق بن شبيب النحوي ، وهو مهن أهل واسط . وفي شعبان توفي القاضي محمد بن أحمد بن المنداي الواسطي بها، وكان كثير الرواية للحديث ، وله اسناد عال ، وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين ، وفيه توفي القوم أبو فراس نصر بن ناصر بن مكي المدائني صاحب المخزن ببغداد، وكان أديباً فاضلًا كامل المروءة يحب الأدب وأهله ، ويحب الشعر وجسن الجوائز عليه ، ولما توفي ، ولي بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأكرم وأعلى محته ، فبقي متولياً إلى سابع ذي القعدة وعزل لعجزه .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان ، وكان اشدها بنيسابور، وخرج أهلها إلى الصحراء أياماً حتى سكنت وعادوا إلى مساكنهم .

ثم دخلت سنة ست وستمائة

ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين

في هذه السنة ، ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين ، وحصر مدينة سنجار، والجميع من اعمال الجزيرة، وهي بيد قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود، وسبب ذلك ، أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل عداوة مستحكمة – وقد تقدّم ذكر ذلك –، فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل ، فإن ولد العادل تزوّج بابنة لنور الدين ، وكان لنور الدين وزراء يحبّون أن يشتغل عنهم ، فحسّنوا له مراسلة العادل ، والاتفاق معه ، على أن يقتسما بالبلاد التي لقطب الدين ، وبالولاية التي لولد سنجرشاه ابن غازي بن مودود ، وهى جزيرة ابن عمر واعمالها ، فيكون ملك قطب الدين للعادل ، وتكون الجزيرة لنور الدين ، فوافق هذا القول هوى نور الدين ، فأرسل إلى العادل ني المعنى، فأجابه إلى ذلك مستبشراً، وجاءه ما لم يكن يرجوه ، لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد ، أخذ الموصل وغيرها ، وأطمع نور الدين أيضا ، في أن يعطي هذه البلاد إذا ملكها لولده الذي هو زوج ابنة نور الدين ، ويكون مقامه في خدمته بالموصل ، واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها، فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات في عساكره ، وقصد الخابور فأخذه ، فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر، فاحضر من يرجع إلى رأيهم وقولهم ، وعرّفهم وصول العادل ، واستشارهم فيما يفعله ، فأما من

أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال ، فعظم الأمر، وأشار بالاستعداد للحصار، وجمع الرجال ، وتحصيل الذخائر، وما يحتاج إليه ، فقال نور الدين : نحن فعلنا ذلك وخبره ، فقال بأي رأي تجيء إلى عدولك ، هو أقوى منك وأكثر جمعاً، وهو بعيد منك متى تحرك لقصدك تعلم به ، فلا يصل إلا وقد فرغت من جميع ما

تريده ، تسعى حتى يصير قريباً منك ، ويزداد قوة إلى قوته ، ثم إن الذي استقرّ بينكما أنه لما يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة، وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى الجزيرة وتحصرها، والعادل ههنا هذا إن وفى لك بما استقرّت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل ،وإن عاد إلى الشام لأنه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر، وديار الجزيرة جميعها، والجميع بيد أولاده ، فمتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها، فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك ، وقوي عدوك وجعلته شعارك ، وقد فات الأمر، وليس يجوز إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة، ويتبدئ بك ، هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحصرها، وكان عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها إلى العادل بعوض يأخذه عنها، فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن يرنقش مملوك أبيه زنكي ، وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل ، فبينما الأمر على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب ، وهو أن مظفر الدين كوكبري صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار، وأن الاتفاق معه على ما يريده ، فوصل الرسول ليلا، وأبلغه الرسالة، فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة، وحلف له على ذلك . وعاد الوزير من ليلته ، فسار مظفر الدين ، واجتمع هو ونور الدين ، ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل ، وكان سبب ما فعله مظفر الدين أن يستشفع به إلى العادل ليتقي عليه

سنجار وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفع في نصف ملك العادل لشفعه ، لأثره الجميل في خدمته ، وقيامه في الذبَ عن ملكه غير مرة –كما تقدم – فشفع إليه ، فلم يشفعه العادل ظناً منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالي بمظفر الدين ، فلمّا رده العادل في شفاعته ، راسل نور الدين في الموافقة عليه ، ولما وصل إلى الموصل ، واجتمع بنور الدين أرسلا إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ، وهو صاحب حلب ، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما ، فكلاهما أجاب إلى ذلك ، وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل ، إن امتنع من الصلح ، والابقاء على صاحب سنجار، وأرسلا أيضا إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولاً إلى العادل في الصلح أيضا، فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ، ووصلت رسل الخليفة، وهو هبة الله بن المبارك بن الضحّاك استاذ الدار، والأمير آق باش ، وهو من خواص مماليك الخليفة

وكبارهم ، فوصلا إلى الموصل ، وسارا منها إلى العادل وهو يحاصر سنجار، وكان من معه لا يناصحونه في القتال لا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، فإنه كان يدخل إليها الأغنام ، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يقاتل عليها وكذلك غيره ، فلما وصل رسول الخليفة إلى العادل أجاب أولا إلى الرحيل ، ثم امتنع عن ذلك ، وغالط واطال الأمر لعله يبلغ منها غرضا، فلم ينل منها ما أمله ، واجاب إلى الصلح على ان له ما أخذه ، وتبقى سنجار لصاحبها، واستقرَّت القاعدة على ذلك ، وتحالفوا على هذا كلهم ، وعلى أن يكونوا يداً واحدة على الناكث منهم ، ورحل العادل عن سنجار إلى حران ، وعاد مظفر الدين إلى اربل ، وبقي كل واحد من الملوك في بلده ، وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين ، وهما عز الدين مسعود، وعماد الدين زنكي .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول ، عزل فخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ، ثم نقل إلى المخزن على سبيل الاستظهار عليه ، وولي بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمي كاتب الانشاء ، ولقب مؤيد الدين ، ونقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبى .

وفيها في شوال توفي مجد الدين يحمى بن الربيع الفقيه الشافعي مدرّس النظامية ببغداد .

وفيها توفي فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي ، صاحب التصانيف المشهورة

في الفقه والأصول وغيرهما ، وكان إمام الدنيا في عصره ، وبلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

وفيها في سلخ في الحجة توفي أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الكاتب ، مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين ، وكان عالماً في عدة علوم منها الفقه والأصولان ، والنحو والحديث واللغة ، وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث ، وله رسائل مدونة ، وكان كاتباً مفلقاً يضرب به المثل ، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم –رحمه الله ورضي عنه – فلقد كان

من محاسن الزمان ، ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي ، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أني مقصّر.

وفيها توفي المجد المطرزي النحوي الخوارزمي ، وكان إماماً في النحو له فيه تصانيف حسنة .

وفيها توفي المؤيد بن عبد الرحيم بن الاخوة بأصفهان ، وهو من أهل الحديث رحمه الله .

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العسكر إليه

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله ، قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طشتكين أمير الحاج – كما ذكرناه – فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة ، فروسل في القدوم إلى بغداد، فغالط ولم يحضر، وكان يظهر الطاعة، ويبطن التغلب على البلاد، فبقي الأمر كذلك إلى ربيع الأول من هذه السنة، فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابي خاص الخليفة ، بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان ، وإخراجه عنها ، فسارا في عساكر كثيرة ، فلما تحقق سنجر قصدهم إليه فارق البلاد، ولحق بصاحب شيراز، وهو أتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئاً إليه ، فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان في ربيع الأخر بغير ممانعة ، فلما استقروا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة ، فلم يجب إلى ذلك ، فساروا إلى ارجان عازمين على قصد صاحب شيراز ، فأدركهم الشتاء ، فأقاموا شهوراً والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز، فلم يجبهم إلى تسليمه ، فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز، فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرابي ، يشفع فيه ، ويطلب العهد له على أن لا يؤذى ، فأجيب إلى ذلك ، وسلّمه اليهم هو وماله وأهله ، فعادوا إلى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار، وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتاً أمير الحاج ، ووصل الوزير إلى بغداد في المحرّم سنة ثمان وستمائة هو والشرابي والعساكر، وخرج أهل بغداد إلى تلقيهم ، فدخلوها وسنجر معهم راكباً

على بغل بأكلف ،وفي رجله سلسلتان في يد كل جندي سلسلة، وبقي محبوسا إلى أن دخل صفر، فجمع الخلق الكثير من الأمراء والأعيان إلى دار مؤيد الدين نائب الوزارة ، فأحضر سنجر، وقرر بأمور نسبت إليه منكرة، فاقر بها، فقال مؤيد الدين للناس : قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من

عقوبة هذا الرجل ، وقد عفا امر المؤمنين عنه ، وأمر بالخلع عليه ، فبسها وعاد إلى داره، فعجب الناس من ذلك ، وقيل إن اتابك سعد نهب مال سنجر وخزانته ودوابه وكل ما لَه ولأصحابه وسيرهم ، فلما وصل سنجر إلى الوزير والشرابي طلبوا المال ، فأرسل شيئاً يسيراً والله أعلم .

ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه وشيء من سيرته

في هذه السنة أواخر رجب توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل ، وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً ، وكان شهماً شجاعاً ذا سياسة للرعايا شديداً على اصحابه ، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، وكان ذلك مانعاً من تعدي بعضهم على بعض ، وكان له همة عالية اعاد ناموس البيت الأتابكي ، وجاهه ، وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت ، وخافه الملوك ، وكان سريع الحركة في طلب الملك إلا أنه لم يكن له صبر، فلهذا لم يتسمع ملكه ، ولو لم يكن له من الفضيلة إلا أنه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين –كما ذكرناه –سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، عفَ عنها وأبقاها على صاحبها ، ولو قصدها وعرها لم يكن فيها قوة الامتناع ،لأن من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا، ولم يبق لهم رمق ، فأبقاها على صاحبها، ولما ملك استغاث إليه انسان من التجار، قاله عن حاله ، فقيل : إنه قد أدخل قماشه إلى البلد لبيبعه، فلم يتم له البيع وريد إخراجه ،وقد منع من ذلك ، فقال : من منعه ؟ فقيل : ضامن البز يريد منه ما جرت يه العادة من المكس .

وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز، وهو إلى جانبه ، فسأله عن العالة كيف هي ؟ شال : إن اشترط صاحبه إخراج متاعه مُكن من اخراجه ، وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت للعالة بأخذه ، فقال : والله ان هذه العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاي شيء يؤخذ منه ماله ؟ فقال مجاهد الدين لا شك في فساد هذه العادة؟ فقال :إذا قلت أنا وانت ، انها عادة فاسدة، فما المانع من تركها، وتقدم بإخراج مال الرجل ؟ وأن لا يؤخذ إلا ممن باع ، وسمعت أخي مجد الدين أبا السعادات – رحمه الله –وكان من اكثر الناس اختصاصا به يقول : ما قلت له يوماً في فعل خير، فامتنع منه بل بادر إليه بفرح واستبشار، واستدعى في بعض الأيام أخي المذكور، فركب إلى داره ،

فلما كان بباب الدار لقيته امرأة وبيدها رقعة، وهي تشكو، وتطلب عَرْضَها على نور الدين ، فأخذها فلما دخل إليه جاراه في مهم له ، فقال : قبل كل شيء تقف على هذه الرقعة، وتقضي شغل صاحبتها، فقال :لا حاجة إلى الوقوف عليها عرفنا إيش فيها.

فقال : والله لا أعلم . إلا أنني رأيت امرأة بباب الدار، وهي متظلمة شاكية ، فقال : نعم عرفت حالها، ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بأمور دولته ، فقال لأخي : ابصر إلى أي شيء قد دفعت مع هذين هذه المرأة، كان لها ابن وقد مات في الموصل ، وهو غريب ، وخلف قماشا ومملوكين ، فاحتاط نوَّاب بيت المال على القماش ، واحضروا المملوكين الينا ، فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها، فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمي بان المال الذي مع ولدها لها ، فتقدمنا بتسليم ما لها إليها، وقلت لهذين : اشتريا المملوكين منها وانصفاها في الثمن ، فعادا ، وقالا : لم يتم بيننا بيع لأنها طلبت ثمناً كثيراً، فأمرتهما بإعادة المملوكين إليها من مدَة شهرين وأكثر، وإلى الآن ما عدت سمعت لها حديثاً ، وظنن انها اخذت ما لها ولا شك أنهما لم يسلما المملوكين إليها، وقد استغاثت إليهما فلم ينصفاها، فجاءت إليك ، وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظنَّ أني أنا منعتها من مالها، فيذمني وينسبني إلى الظلم ، وليس لي علم ، وكل هذا فعل هذين اشتهي ا.ن تتسلم أنت المملوكين ، وتسلمهما إليها ، فأخذت المرأة ما لها

وعادت شاكرة داعية، وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره .

ذكر ولاية ابنة الملك القاهر

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب في الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود، وأحلف له الجند وأعيان الناس ، وكان قد عهد إليه قبل موته بمدّة، فجدد العهد له عند وفاته ، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها، وسيًّره إلى العقر، وأمر أن يتولى تدبير مملكتها، ويقوم بحفظها، والنظر في مصالحها، فتاه الأمير بدر الدين لؤلؤ، لما رأى من عقله وسداده ، وحسن سياسته ، وتدبيره ، وكمال خلال السياسة فمه ، وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين ، ولما اشتدَّ مرضه ، وأيس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار إلى الحالة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل ، فانحدر إليها، فلم يجد بها راحة وازداد ضعفاً، فأخذه بدر الدين ، واصعده في الشبارة إلى الموصل ، فتوفّي في الطريق ليلاً ومعه الملاحون

والأطباء بينه وبينهم ستر، وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوكان ، فلما توفّي نور الدين قال لهما لا يسمع احد بموته . وقال : للأطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا إلى الموصل في الليل ، فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتاً وأبعدوا ، فحمله هو والمملوكان ،، وأدخله الدار وتركه في الموضع الذي كان فيه ، ومعه المملوكان ، ونزل على بابه من يثق إليه لا يمكن أحداً من الدخول والخروج ، وقعد مع الناس يمضي أموراً كان يحتاج إلى اتمامها ، فلما فرغ من جميع ما يريده ، أظهر موته وقت العصر ودفن ليلاً بالمدرسة التي أنشأها مقابل داره ، وضبط البلد تلك الليلة ضبطاً جيداً بحيث أن الناس في البلد لم يزالوا متردّدين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد، واستقر الملك لولده ، وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر في مصالحها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر، درس القاضي ابو زكريا بن القاسم بن المفرج قاضي تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعي من تكريت اليها.

وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصاً كثيراً حتى كان يجري الماء ببغداد في نحو خمسة اذرع ، وأمر الخليفة ان يكري دجلة، فجمع الخلق الكثير، وكانوا كلما حفروا شيئاً ، عاد الرمل وغطاه ، وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد، وهذا لم يعهد مثله ، وحجّ بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج ، وكان قد ولاه الخليفة

خوزستان ، وجعله هو امير الحاج ، وجعل معه من يدبر الحاج لأنه كان صبياً .

وفيها في العشرين من ربيع الآخر توفّي ضياء الدين احمد عبد الوهاب بن علي بن عبد الله الأمير البغدادي ببغداد، وهو سبط صدر الدين اسماعيل شيخ الشيوخ ، وعمره سبع وثمانون سنة وشهور. وكان صوفياً فقيهاً محدثاً سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح .

وفيها توفَي شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزذ البغدادي ، وكان عالي الإسناد .

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب أيتغمش

في هذه السنة في شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان وأصفهان والري رما بينما من البلاد إلى بغداد هاربا من منكلي ، وسبب ذلك أن ايتغمش كان قد تمكّن في البلاد، وعظم شأنه ، وانتشر صيته ، وكثر عسكره حق إنه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان – صاحب هذه البلاد – أذربيجان وأران – كما ذكرناه "– فلما كأن الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي ، ونازعه في البلاد وكثر اتباعه واطاعه المماليك البهلوانية، فاستولى عليها ، وهرب منه شمس الدين أيتغمش إلى بغداد، فلما وصل اليها أمر الخليفة بالاحتفال به في اللقاء، فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهوداً ، ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل ، فأكرمت وأنزلت عند زوجها ، وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمائة، فسار عنها فكان من أمره – ما نذكره – .

ذكر نهب الحاج بمنى

وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى، وسبب ذلك أن باطنياً وثب على بعض أهل الأمير قتادة صاحب مكة، فقتله بمنى ظناً منه أنه قتادة، فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة ، وقصدوا الحاج ، ونزلوا عليهم من الجبل ،ورموهم بالحجارة والنبل ، وغير ذلك ، وكان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدم ذكره ، وهو صبي لا يعرف كيف يفعل ، فخاف وتحيّر وتمكَّن أمير مكة من نهب الحاج ، فنهبوا منهم من كان في الأطراف ، واقاموا على حالهم إلى الليل ، فاضطرب الحاج ، وباتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من

القتل والنهب ، فقال بعض الناس لأمير الحاج : لينتقل بالحجاج إلى منزلة حجاج الشام ، فأمر بالرحيل ، فرفعوا أثقالهم على 1 الجمال ، واشتغل

الناس بذلك ، فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب ، والتحق من سلم بحجاج الشام ، فاجتمعوا بهم ، ثم رحلوا إلى الزاهر، ومنعوا من دخول مكة، ثم اذن لهم في ذلك ، فدخلوها ، وتمموا حجتهم وعادوا ، ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من اصحابه إلى بغداد، فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان ، فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها، وأمر باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلادهم من خراسان والشام ، وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الاسلام يخبرهم بذلك ، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيما، وكذلك بطريق مكة .

وفيها سلخ جمادى الآخرة توفي أبو حامد محمد بن يونس بن ميعة الفقيه الشافعي بمدينة الموصل ، وكان إماما فاضلًا، إليه انتهت رياسة الشافعية، لم يكن في زمانه مثله ، وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والاحسان اليهم رحمه الله .

وفيها في شهر ربيع الأول توفّي القاضي ابو الفضائل علي بن يوسف بن احمد بن الأمدي الواسطي قاضيها، وكان نعم الرجل .

وفيها في شعبان توفّي المعين ابو الفتوح عبد الواحد بن احمد بن علي الأمين شيخ الشيوخ ببغداد، وكان موته بجزيرة كاس مضى اليها رسولاً من الخليفة، وكان من اصدقائنا ، وبيننا وبينه مودة متأكّدة وصحبة كثيرة ، وكان من عباد الله

الصالحين – رحمه الله ورضي عنه –، وله كتابة حسنة وشعر جيد ،وكان عالماً بالفقه وغيره ، ولما توفي رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبي احمد ، وكان ناظراً على المارستان العضدي ، فتركه واقتصر على الرباط.

وفيها في ذي الحجة توفي محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابوري الكاتب الحسن الخط وكان يؤدي طريقة ابن البواب وكان فقيهاً حاسباً متكلماً وفيها توفي

عمر بن مسعود أبي العز أبو القاسم البزار البغدادي بها وكان من الصالحين يجتمع إليه الفقراء كثيراً ويحسن اليهم وتوفّي أيضاً أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبي العدوي وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالماً .

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

ذكر قدوم ابن منكلي بغداد

في هذه السنة في المحرم قدم محمد بن منكلِي، المستولي على بلاد الجبل إلى بغداد، وسبب ذلك ان أباه منكلي لمّا استولى على بلاد الجبل ، وهرب ايتغمش صاحبها منها إلى بغداد، خاف ان يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر، فيعظم الأمر عليه لأنه لم يكن قد تمكّن في البلاد، فأرسل ولده محمداً، ومعه جماعة من العسكر، فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه ، وأنزل وأكرم ، وبقي ببغداد إلى أن قتل أيتغمش ، فخلع عليه وعلى من معه ، وأكرموا وسيرهم إلى أبيه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، صاحب مصر والشام على علي أمير اسمه أسامة ، كان له أقطاع كثيرة، من جملتها حصن كوكب من اعمال الأردن بالشام ، وأخذ منه حصن كوكب ، وخربه وعفى أثره ، ومن بعده بنى حصناً بالقرب منه على جبل يسمّى الطور، وهو معروف هناك ، وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح .

وفيها توفي الفقيه محمد بن اسماعيل بن أبي الصيف اليمني ، فقيه الحرم الشريف بمكة .

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

ذكر قتل ايتغمش

في هذه السنة في المحرم قتل أيتغمش الذي كان صاحب همذان ،وقد ذكرتا ستة ثمان انه قدم إلى بغداد وأقام بها، فأنعم عليه الخليفة، وشرفه بالخلع ، وأعطاه الكوسات وما يحتاج إليه ، وسيره إلى همذان ، فسار في جمادى الآخرة عن بغداد، قاصداً إلى همذان ، فوصل إلى بلاد ابن ترجم، واجتمعا، وأقام ينتظر وصول عسكر بغداد إليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم ، وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية ، وولى أخاه الأصغر، فأرسل سليمان إلى منكلي يعرفه بحال أيتغمش ، ومضى هو على وجهه ، فأخذوه فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى منكلي ، وتفرق من معه من اصحابه في البلاد لا يلوي أخ على أخيه ، ووصل الخير بقتله إلى بغداد، فعظم على الخليفة ذلك ، وأرسل إلى منكلي ينكر عليه ما فعل ، فاجلب جواباً شديداً ، وتمكن من البلاد ، وقوي أمره ، وكثرت جموعه وعساكره، وكان من أمره ما نذكره –إن شاء الله –.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس في هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلي نيابة عن أمير الحاج ابي ياقوت ومُنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج في ولايته .

وفيها في المحرم توفي الحكيم المهذب علي بن احمد بن مقبل الطبيب المشهور، كأن اعلم أهل زمانه بالطب ،روى الحديث ، وكان مقيماً بالموصل ،وبها مات ، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق ، وله تصنيف حسن في الطب .

وفيها توفي اسماعيل بن علي البغدادي ، الفقيه الحنبلي صاحب ابن المني .

وفيها توفّي ايضا احمد بن مسعود التركستاني (1) الفقيه الحنفي ببغداد، وهو مدرس مشهد ابي حنيفة .

وفيها في جمادى الأولى توفي معز الدين أبو المعاني صعد بن علي ، المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله ، وكان قد ألزم بيته ، ولما توفي حمل تابوته إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة، وكان حسن السيرة في وزارته كثير الخير والنفع للناس .

(1) هو ابو الفضل أحمد بن مسعود التركستانى ، شيخ الحنفية بالعراق . تاريخ بغداد 5/ 40.

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة

ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أيّ سنة كانت ، إنما هى إما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل ، لأن الذي أخبر بها كان من اجناد الموصل ، وسافر إلى تلك البلاد، وأقام بها عدة سنين ، وسار مع الأمير أبي بكر الذي فتح كرمان ، ثم عاد، فأخبرني بها على شك من وقتها، وقد حضرها فقال : خوارزمشاه محمد بن تكش ، كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه ابو بكر ولقبه تاج الدين ، وكان في ابتداء امره جمالا يكري الجمال في الاسفار، ثم جاءته السعادة ، فاتصل بخوارزمشاه ، وصار سيروان جماله ، فرأى منه جلداً وأمانة فقدمه إلى أن صار من اعيان امراء عسكره ، فولاه مدينة زوزن ، وكان عاقلا ذا رأي وحزم وشجاعة ، فتقدّم عند خوارزمشاه تقدّماً كثيراً ، فوثق به اكثر من جميع امراء دولته ، فقال ابو بكر لخوارزمشاه : إن بلاد كرمان مجاورة لبلدي ، فلو أضاف السلطان إليَّ عسكراً لملكتها في اسرع وقت ، فسيَّر معه عسكراً كثيراً، فمضى إلى كرمان ، وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبي الفضل ، الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر، فقاتله ، فلم يكن له به قوَّة، وضعف ، ، فملك أبو بكر بلاده في اسرع وقت ، وسار منها إلى نواحي مكران ، فملكها كلها إلى السند من حدود كابل ، وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران ، فأطاعه صاحبها ، واسمه ملتك ، وخطب بها لخوارزمشاه ، وحمل عنها مالاً ، وخطب له بقلهات ، وبعض عمان ، لأن اصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز، وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع

بينهم أنهم يتقربون إليه بالطاعة ليأمن اصحاب المراكب التي تسير اليهم عنده ، فإن هرمز مرسى عظيم ، ومجمع للتجار من اقاصي الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات ، وكل منهما ينهى اصحاب المراكب

ان ترسي ببلد خصمه ، وهم كذلك إلى الآن ، وكان خوارزمشاه يصيِّف بنواحي سمرقند لأجل التتر أصحاب كشلي خان لئلا يقصد بلاده ، وكان سريع السير إذا قصد جهة سبق خبره .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحري ، وكان قد وزر لشهاب الدين الغوري ،ولتاج الدين الدز بعده ، وكان حسن السيرة، جميلِ الاعتقاد، محسناً إلى العلماء، وأهل الخبر، يزورهم ويبرهم ، ويحضر الجمعة ماشياَ ، وكان سبب قتله أن بعض عسكر الدر كرهوه ،وكان كل سنة يتقدَّم إلى البلاد الحارة بمِن يدي الدز أول الشتاء، فسار هذه كعادته ، فجاء اربعون نفراً أتراكاً لمَالوا له : السلطان يقول لك تحضر جريدة في عشر نفر لمهم تجدد، فسار معهم جريدة في عشر مماليك ، فلما وصلوا إلى نهوند بالقرب من ماء السند، قتلوه وهربوا، ثم إنهم ظفر بهم خوارزمشاه محمّد فقتلهم .

وفيها في رجب توفّي الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي البغدادي بغداد وكان قد ولِي عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى انه رأى أبوه يوماً عليه قميصاً بخارياَ ، فقال :ما هذا القميص ؟ فقال : بخاري ، فقال أبوه : هذا عجب ، ما زلنا نسمع مسلم والبخاري ، وأما كافر والبخاري ما سمعنا، وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين ، وأظهرت في ملأ من الناس ، وروي فيها من تبخير النجوم ، ومخاطبة زحل بالإلهية ، وغير ذلك من الكفريات ،ثم احرقت بباب العامة، وحبس ، ثم افرج عنه بشفاعة أبيه ، واستعمل بعد ذلك .

وفيها ايضا توفّي ابو العباس احمد بن هبة الله بن العلاء، المعروف بابن الزاهد ببغداد ، وكان عالماً بالنحو واللغة .

وفي شعبان منها توفّي ابو المظفر محمد بن علي بن ألبل اللوري الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى، ومولده سنة عشر وخمسمائة .

وفي شوال منها توفي عبد العزيز بن محمود بن الأخضر، وكان من فضلاء المحدثين ، وله سبع وثمانون سنة .

ثم دخلت سنة اثنتي عشر وستمائة

ذكر قتل منكلي وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك

في هذه السنة في جمادى الأولى ، انهزم منكلي صاحب همذان وأصفهان والري وما بينهم من البلاد، ومضى هارباً فقتل ، وسبب ذلك أنه كان قد ملك البلاد–كما ذكرناه –.وقتل ايتغمش ، فأرسل إليه من الديوان الخلفي رسول ينكر ذلك عليه ، وكان اوحش الأمير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان ، وهو صاحبه ومخدومه ، فأرسل الخليفة إليه يحرضه على منكلي ، ويعده النصرة، وأرسل ايضا إلى جلال الدين الاسماعيلي ، صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم ، الموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلي ، واستقرّت القاعدة بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد، ولأوزبك بعضها، ويعطي جلال الدين بعضها، فلما استقرت القواعد على ذلك ، جهَّز الخليفة عسكراً كثيراً، وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع ، وأرسل إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كوجك ، وهو اذ ذاك صاحب إربل وشهرزور واعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ، ويكون مقدَّم العساكر جميعها، وإليه المرجع في الحرب ، فحضر وحضر معه عسكر الموصل ، وديار الجزيرة وعسكر حلب ، فاجتمعت عساكر كثيرة ، وساروا إلى همذان ، فاجتمعت العساكر كلها، فانزاح منكلي من بين أيديهم ، وتعلق بالجبال وتبعوه ، فنزلوا بسفح جبل هو في أعلاء بالقرب من مدينة كرج ، وضاقت الميرة والأقوات على العسكر الخليفي جميعه ومن معهم ، فلو أقام منكلي بموضعه لم يمكنهم المقام عليه اكثر من عشرة أيام لكنه طمع ، فنزل ببعض

عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك ، فحملوا عليه ، فلم يثبت أوزبك ، ومضى منهزماً، فعاد اصحاب منكلي وصعدوا الجبل ، وعاد أوزبك إلى خيامه ، فطمع منكلي حينئذ، ونزل من الغد في جميع عسكره ، واصطدمت العساكر للحرب ، واقتتلوا اشد

قتال يكون ، فانهزم منكلي وصعد الجبل ، فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه ، وكان قصاراهم العود عنه لكنه اتخذ الليل جملا، وفارق موضعه ، ومضى منهزماً، فاتبعه نفر يسير من عسكره ، وفارقه الباقون ، وتفرقوا أيدي سبا ، واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد، فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقر له ، وأخذ الباتي أوزبك ، فسئمفا إلى اغلمش مملوك أخيه ، وكان قد توجَّه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد، وبقي عند. ، ثم عاد عنه ، وشهد الحرب وأبلى فيها فولاه أوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر إلى بلادهم ، وأما منكلي ، فانه مضى منهزماً إلى مدينة ساوة، وبها شحنة هو صديق له ، فأرسل إليه يستأذنه في الدخول إلى البلد، فاذن له ودخل إليه ، وخرج فلقيه ، وقبل الأرض بين يديه ، وادخله البلد، وأنزله في داره ، ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده ويرسله إلى أغلمش ، فسأله ان يقتله هو، ولا يرسله فقتله وأرسل رأسه إلى أوزبك ، وأرسله أوزبك إلى بغداد ، وكان يوم دخولها يوماً مشهوداً إلا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك ، فإنه وصل ومات ولده في تلك الحال ، فأعيد ودفن .

ذكر وفاة ابن الخليفة

في هذه السنة في العشرين من ذى القعدة توفي ولد الخليفة، وهو الأصغر، وكان يلقب الملك المعظم ، واسمه أبو الحسن علي ، وكان احب ولذي الخليفة إليه ، وقد رشحه لولاية العهد بعده ، وعزل ولده الأكبر عن ولاية العهد ، واطرحه لأجل هذا الولد ، وكان رحمه الله كريماً كثير

الصدقة، والمعروف حسن السيرة محبوباً إلى الخاص والعام ، وكان سبب موته أنه اصابه إسهال ، فتوفي وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه أرسل إلى اصحاب الأطراف ، ينهاهم عن انفاذ رسول إليه يعزيه بولده ، ولم يقرأ كتاباً ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه ، ورؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ، ولما توفي اخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي ، فدفن عندها، ولما أدخل التابوت اغلقت الأبواب ، وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ، فقيل : إن ذلك صوت الخليفة ، وأما العامة ببنداد، فإنهم وجدوا عليه وجدا شديدا ، ودامت الملاحات عليه في اقطار بغداد ليلًا وتهاراً، ولم يبق ببغداد محلة إلا فيها النوح ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن ، وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه ، وكان موته وقت وصول رأس منكلي إلى

بغداد، فإن الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس ، فخرج الناس كافة، فلما دخلوا بالرأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة ، فأعيد الرأس ، وهذا دأب الدنيا لا يصفو أبداً فرحها من ترح ، وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح .

ذكر ملك خوارزمشاه غزنة واعمالها

في هذه السنة في شعبان ملك خوارزمشاه محمّد بن تكش مدينة غزنة واعمالها، وسبب ذلك أن خوارزمشاه لمّا استولى على عامة خراسان ، وملك باميان ، وغيرها أرسل إلى تاج الدين صاحب غزنة، وقد تقدّمت أخباره حتى ملكها، يطلب منه ان يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، ويرسل إليه فيلاً واحداً ليصالحه ، وبيده غزنة، ولا يعارضه فيها ، فاحضر الأمراء واعيان دولته ، واستشارهم ، وكان فيهم اكبر امير اسمه قتلغ تكين ، وهو من مماليك شهاب الدين الغوري ايضاً، وإليه الحكم في دولة الدز، وهو النائب عنه بغزنة، فقال : الرأي أن تخطب له ، وتعطيه ما طلب ، وتستريح من الحرب والقتال ، وليس لنا بهذا السلطان قوة، فقال الجماعة مثل قوله ، فأجاب إلى ما طلب منه ، وخطب لخوارزمشاه ، وضرب السكة باسمه ، وأرسل إليه رسولاً ، وأعاد رسوله إليه ، ومضى إلى الصيد، فأرسل قتلغ تكين من غزنة إلى خوارزمشاه يطلبه ، ليسلم إليه غزنة فسار مجداً، وسبق خبره فسلم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها، فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية، لا سيما الأتراك ، فوصل الخبر إلى الدز بذلك فقال : ما فعل قتلغ تكين ، وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها؟ فقيل : هو الذي أحضره ، وسلّم إليه ، فمضى

هارباً هو ومن معه إلى لهاوور، وأقام خوارزمشاه بغزنة ، فلما تمكّن منها احضر قتلغ تكين ، فقال له : كيف حالك مع الدز، وكان عالماً به ، وإنما أراد أن تكون له الحجّة عليه فقال : كلانا مماليك شهاب الدين ، ولم يكن الدز يقيم بغزنة إلا أربعة اشهر الصيف ، وانا الحاكم فيها ، والمرجع إليّ في كل الأمور، فقال له خوارزمشاه : اذا كنت لا ترعى لرفيقك ، ومن احسن اليك صحبته ، لإحسانه ، فكيف يكون حالي أنا معك ؟ وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته عندك ؟ فقبض عليه وأخذ منه أموالاً جمة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال والأمتعة ، وأحضر أربعمائة مملوك ، فلما أخذ ماله قتله ، وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وامرائه ، وقيل إن ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة .

ذكر استيلاء الدز على لهاوور وقتله

لما هرب الدز من غزنة إلى لهاوور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضاً ، وله من البلاد لهاوور وملتان وأوجه وديبل ، وغير ذلك إلى ساحل البحر، ومعه نحو خمسة عشر الف فارس ، وكان قد بقي مع الدز نحو الف وخمسمائة فارس ، فوقع بينهما مصاف ، واقتتلوا ، فانهزمت ميمنة الدز وميسرته ، وأخذت الفيلة التي معه ولم يبق له غير فيلين معه في القلب ، فقال الفيال : إذاً أخاطر بسعادتك وأمر احد الفيلين ان يحمل على العلم الذي لقباجة يأخذه ، وأمر الفيل الآخر الذي له ايضا ان ياخذ الجتر الذي له ، فأخذه ايضا، والفيلة المعلَّمة تفهم ما يقال لها – هذا رأيناه – فحمل الفيلان ، وحمل معهما الدز فيمن بقي عنده من العسكر، وكشف رأسه ، وقال بالعجمية ما معناه : إما ملك ، وإما هلك ، واختلط الناس بعضهم ببعض ، وفعل الغيلان ما أمرهما الفيال ، من أخذ العلم والختر، فانهزم قباجة وعسكره ، وملك الدز مدينة لهاوور، ثم سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دهلة وغيرها مما بيد المسلمين ، وكان صاحب دهلة امير اسمه الترمش ، ولقبه شمس الدين ، وهو من مماليك قطب الدين أيبك ، مملوك شهاب الدين أيضاً، وكان قد ملك الهند بعد سيده ، فلمّا سمع به الترمش سار إليه في عساكره كثَها فلقيه عند مدينة سمانا، فاقتتلوا ، فانهزم الدز وعسكره ، واخذ وقتل ، وكان الدز محمود السيرة في ولايته كثير العدل والاحسان إلى الرعية ، لا سيما التجار والغرباء، ومن محاسن اعماله انه كان له اولاد، ولهم معلم يعلمهم ، فضرب المعلم احدهم ، فمات فأحضره الدز، وقال له : يم ا

مسكين ما حملك على هذا؟ فقال : والله ما أردت إلا تأديبه ، فاتَّفق ان مات . فقال : صدقت ، وأعطاه نفقة ، وقال له : تغيب فان أمه لا تقدر على الصبر، فربما اهلكتك ، لا اقدر أمنع عنك ، فلما سمعت أم الصبي بموته طلبت الأستاذ لتقتله ، فلم تجده فسلم ، وكان هذا من احسن ما يحكى عن احد من الناس .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفّي الوجيه المبارك بن أبي الأزهر سعيد بن الدهان الواسطي النحوي الضرير، كان تحريراً فاضلاً، قرأ على الكمال بن الأنباري ،وعلى غيره ، وكان حنبلياً ، فصار حنفياً ، ثم صار شافعياً ، فقال فيه ابو البركات بن زبد التكريتي :

ㄱ ⌶ ألا مبلغاً علي الوجـهَ رسالـةً   وإنْ كانَ لا تُجدِي لديه الرسائلُ

ㄴ ⌶ تمذهنتَ للنعمانِ بعدَ ابن حنيلٍ   وفارَقت إذ اعـوزَتْكَ المـآكلُ

ㄷ ⌶ وما اخترتَ رأي الشافعيّ تديناً   ولكنما تَهوَى الذي هـو حَاصلُ

ㄹ ⌶ وعمَّا قليلٌ أنتَ لا شك صائر   إلى مـالكٍ فافـطنْ لِنا أَنَا قَائلُ

ثم دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر

فى هذه السنة فى جمادى الآخر ، توفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرها من بلاد الشام ، وكان مرضه إسهالاً ، وكان شديد السيرة ضابطاً لأموره كلها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب ، لا يرى الصفح ، وله مقصد ، يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجري عليهم الجاري الحسن ، ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد، ولقبه الملك العزيز غياث الدين ، عمره ثلاث سنين ، وعدل عن ولد كبير، لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبي بكر بن أتوب ، صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليبقي عمّه البلاد عليه ، ولا ينازعه فيها، ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا إلى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يخلف لولده الصغير، فقال العادل سبحان الله أي حاجة إلى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادي ، فقال الرسول ، وقد طلب هذا واختاره ، ولا بد من إجابته إليه ، فقال العادل كم من كبش في المرعى وخروف عند القصاب ، وحلف فاتفق في تلك الايام ، أن توفي الملك الظاهر، والرسول في الطريق ، ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك ، جعل أتابكه ومربيه خادماً رومياً اسمه طغربل ، ولقبه شهاب الدين ، وهو من خيار عباد الله ، كثير الصدقة والمعروف ، ولما توقي الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة في الناس ، وعدل

فيهم ، وأزال كثيراً من السنن الجارية ، واعاد أملاكاً كانت قد اخذت من أربابها، وقام بتربية الطفل احسن قيام ، وحفظ بلاده ، واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله ، وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه ، فمن ذلك : تل باشر، كان

الملك الظاهر لا يقدر ان يتعرض إليه ، فلما توفّي ملكها كيكاوس ملك الروم –كما نذكره –إن شاء الله تعالى – انتقلت إلى شهاب الدين ، وما اقبح بالملوك وابناء الملوك ان بكون الرجل الغريب المنفرد، احسن سيرة ، واعف من أموال الرعية، وأقرب إلى الخير منهم ، ولا اعلم اليوم في ولاة أمور المسلمين احسن سيرة منه ، فالله يبقيه ويدفع عنه ، فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرم ، وقع بالبصرة يرد كثير، وهو مع كثرته عظيم القدر، قيل كان أصغره مثل النارنجة الكبيرة، وقيل في أكبره ما يستحي الانسان ان يذكره ، فكسر كثيرا من رؤوس النخيل ، وفي المحرم ايضاً ستر الخليفة الناصر لدين الله ولدي ابنه المعظم علي إلى تستر وهما :المؤيد والموفق ، وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابي ، فأقاما بها يسيراً ، ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد أواخر ربيع الآخر .

وفيها في صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام ، وألقت رملا كثيراً، وقلعت كثيراً من الشجر، فخاف الناس ، وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة إلى ثلث الليل وانكشفت .

وفيها توفي التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمن البغدادي المولد والمنشأ انتقل بالشام ، فأقام بدمشق ، وكان إماماً في النحو واللغة، وله الإسناد العالي في الحديث ، وكان ذا فنرن كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله .

ثم دخلت سنة أربع عشر وستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل

في هذه السنة سار خوارزم شاه ، علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد الجبل فملكها، وكان سبب حركته في هذا الوقت اشياء : أحدها انه كان قد استولى على ما وراء النهر، وظفر بالخطا، وعظم أمره ، وعلا شانه واطاعه القريب والبعيد ، ومنها أنه كان يهوى أن يخطب له ببغداد، ويلقب بالسلطان ، وكان الأمر بالصد لأنه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولًا، وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد ان يقدم غيره عليه ، ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه ، فكان إذا سمع ذلك يغضبه ، ومنها ان اغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها–كما ذكرناه – فلما قتله الباطنية غضب له ، وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته ، فسار مجداً في عساكر تطبق الأرض ، فوصل إلى الري فملكها .

وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لمّا بلغه مقتل أغلمش جمع عساكره ، وسار نحو بلاد الجبل طمعاً في تملكها لخلوها عن حام وممانع ، فوصل إلى أصفهان ، فأطاعه أهلها ، وسار منها يريد الري ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه ، فلقيه مقدمة خوارزم شاه ، فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجذ في محاربتهم حتى كاد يهزمهم ، فبينما هو كذلك ، وإذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه ، فسأل عنه ، فاخبر به ، فاستسلم وانهزمت عساكره ، وأخذ أسيراً ، وحمل إلى بين يدي خوارزم شاه ، فأكرمه ووعده الإحسان والجميل ، وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته ، واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد

إليه ، ويبقي بعضها وأطلقه ، وسَّير معه جيشاً إلى بلاد فارس ليسلم إليهم ما استقرَّت القاعدة عليه ، فلما قدم على ولده الأكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس ، فامتنع من التسليم إلى أبيه ، ثم إنه ملك

البلاد – كما نذكره – وخطب فيها لخوارزم شاه ، وسار خوارزم شاه إلى ساوة، فملكها وأقطعها العماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها، ثم سار إلى قزوين وزنجان وأبهر، فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ، ثم سار إلى همذان ، فملكها واقطع البلاد لأصحابه ، وملك اصفهان ، وكذلك قم وقاشان ، واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وأران بان يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته ، ثم انه عزم على المسير إلى بغداد، فقدم بين يديه أميراً كبيراً في خمسة عشر الف فارس ، واقطعه حلوان ، فسار حتى وصل إليها ثم أتبعه بأمير آخر، فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله ، فهلكت دوابهم ، ومات كثير منهم ، وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك ، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم ، فلم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق ، وعزم على العود إلى خراسان خوفاً من التتر، لأنه ظن أنه يقضي حاجته ، ويفرغ من إِرادته في المدة اليسيرة ، فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلاً، فعزم على العود، فولى همذان اميراً من أقاربه من جهة والدته يقال له : طائيسي ، وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين ، وجعل معه متوليّاً لأمر دولته عماد الملك الساوي ، وكان عظيم القدر عنده ، وكان يحرص على قصد العراق .

وعاد خوارزم شاه إلى خراسان ، فوصل إلى مرو في المحرَّم سنة خمس عشرة وستمائة، وسار من وجهه إلى ما

وراء النهر، ولمَّا قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر، وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله ، وقال : إنه قد مات ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة، ولما قدم مرو قطع الخطبة بها ، وكذلك ببلخ وبخارى وسرخس ،وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها ، إلا عن قصد لتركها لأن البلاد كانت لا تعارض من اشباه هذا ، ان احبوا خطبوا ، وإن أرادوا قطعوا، فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان ، وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله وخبث نيته ، لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديماً ولا حديثاً.

ذكر ما جرى لأتابك سعد مع اولاده

لما قتل أغلمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان ، وما بينهما من البلاد جمع

أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره ، وسار عن بلاده أصفهان ، فملكها وأطاعه أهلها، فطمع تلك البلاد جميعها، فسار عن أصفهان إلى الري ، فلما وصل اليها لقي عساكر خوارزمشاه قد وصلت – كما ذكرناه –، فعزم على محاربة مقدمة العسكر، فقاتلها حتى كاد يهزمها ، فظهرت عساكر خوارزم شاه ، ورأى الجتر، فسقطّ في يده والقى نفسه ، وضعفت قوته وقوة عسكره ، فولوا الأدبار، وأخذ أتابك سعد أسيراً ، وأحضر بين يدي خوارزمشاه ، فأكرمه ، وطيَّب نفسه ، ووعده الإحسان واستصحبه معه إلى ان وصل إلى اصفهان ، فسيره منها إلى بلاده ، وهي تجاورها، وسيَّر معه عسكراً مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما ، فإنهما اتفقا على ان يكون لخوارزمشاه بعض البلاد ولأتابك سعد بعضها، وتكون الخطبة لخوارزمشاه في البلاد جميعها، وكان أتابك سعد قد استخلف ابناً له على البلاد، فلمّا سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة، وقطع خطبة أبيه ، فلمّا وصل أبوه ومعه عسكر خوارزمشاه ، امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه ، وجمع العساكر، وخرج يقاتله ، فلما تراءى الجمعان ، انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم أف ابك سعد ، وتركوا ابنه في خصاصته ، فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن أنه لم يعرفه ، فقال له : أنا فلان ، فقال إياك أردت ، فحينئذ امتنع منه ، وولى الابن منهزماً ، ووصل أتابك سعد إلى البلاد، فدخلها مالكاً لها ، وأخذ ابنه اسيراً ، فسجنه إلى الان إلا أنني سمعت الآن ، وهو سنة عشرين وستمائة أنه قد خفف حبسه ووسع عليه ، ولما عاد خوارزم شاه إلى خراسان غدر

سعد بالأمير الذي عنده فقتله ، ورفع عن طاعة خوارزم شاه ، واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره ، لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين – كما ذكرناه – سنة عشرين وستمائة لأن سعداً كفر إحسان خوارزم شاه ، وكفر الإحسان عظيم العقوبة .

ذكر ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى ديار مصر
وملكهم مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين

كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها اربع سنين غير شهر، وإنما ذكرناها ههنا لأن ظهورهم كان فيها، وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا، فنقول في هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج ، في الغرب والشمال ، إلا أن المتولي لها كان صاحب رومية ، لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة،

لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه ، فيما سرهم وساءهم ، فجهَّز العساكر من عنده مع جماعة من مقدّمى الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً، ففعلوا ما أمرهم ، فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام ، وكان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام ، فوصل إلى الرملة ، ومنها إلى لد وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه ، فسار العادل نحوهم ، فوصل إلى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم ، فساروا هم ، فسبقوه ، فنزل على بيسان من الأردن ، فتقدم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربته ، لعلمهم أنه في قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد، فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد، ويجمع العساكر، فوصل إلى مرج الصفر، فنزل فيه ، وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا ، فلم يفارقوا بلادهم ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه ، فلما أقدموا على غفلة من الناس ، فلم يقدر على النجاة إلا القليل ، فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت ، وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيراً ، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس ، وبثوا السرايا في القرى، فوصلت إلى خسفين ، ونوى وأطراف السواد، ونازلوا بانياس ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام ، ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا

وأحرقوا وأهلكوا ، فأقاموا أياما استراحوا ، ثم جاؤوا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف ، ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين ، فنهبوا البلاد صيدا والشقيف ، وعادوا إلى عكا ، وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد ، والذي سلم من تلك البلاد كان مخفاً حتى قدر على النجاة، ولقد بلغني أن العادل لما سار إلى مرج الصفر، رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً، وهو يمشي تارة وتارة يقعد ليستريح ، فعدل العادل إليه وحده فقال له : يا شيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك ، فعرفه الرجل ، فقال : يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل ، فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل ، وبالجملة الذي فعله العادل قو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرّق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر ستر ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس .

ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها

لما نزل الفرنج بمرج عكا، تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا، كان العادل قد بناها عن قريب ، فتقدموا إليها وحصروها ، وزحفوا اليها ، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها، وكادوا يملكونه ، فاتفق ان بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم ، فعادوا عن القلعة، فتركوها، وقصدوا عكا، وكان مدّة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً، ولما فارقوا الطور م قاموا قريباً، ثم ساروا في البحر إلى ديار مصر -على ما نذكره إن شاء الله تعالى -فتوجّه الملك المعظّم إلى قلعة الطور فخربها إلى ان الحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ، ويتعذر حفظها .

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكّا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر ، فأرسلوا إلى بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل ، فإن بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط ، وقد بني في النيل برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ، ومدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح ان تصعد في النيل إلى ديار مصر، ولولا هذا البرج ، وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن اقاصي ديار مصر وأدانيها ، فلما نزل الفرنج على برّ الجيزة، وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً، وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم ، وشرعوا في قتال من بدمياط ، وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً يزحفون بها في

المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه ، وكان البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل ، وهو صاحب دمياط ، وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط ، والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى م رضها، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منه بشيء ، وكسرت مرماتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة اشهر، ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد

ذلك ملكوا البرج ، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ، ويتحكموا في البر، فنصب الملك عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم انهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع اخذ الملك الكامل عدَّة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك ، يعرف بالأزرق ، كان النيل يجري عليه قديماً، فحفروا ذلك الخليج ، وعمقوه فوق المراكب التي جعلت في النيل ، واجروا الماء فيه إلى البحر المالح ، واصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له : بورة على ارض الجيزة ايضا مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك ، فانهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها، كانت دمياط تحجز بينهم وبينه ، فلما صاروا في بورة حاذوه ، فقاتلوه في الماء وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل ، ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والأمداد متصلة بهم ، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم اذى، وأبوابها مفتحة، وليس عليها من الحصر ضيق ، ولا ضرر، فاتفق – لما يريد الله عز وجل – أن الملك العادل توفّي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة –على ما نذكره إن شاء الله –فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة، وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته ، والحال هكذا من مقاتلة العدو.

وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين ، احمد بن علي ويعرف بابن المشطوب ، وهو من الأكراد الهكارية، وهو اكبر أمير بمصر، وله لفيف كثير، وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه ، لا سيما الأكراد، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، وأرادوا ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ، ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ، ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد، فبلغ الخبر إلى الكامل ، ففارق المنزلة ليلاً جريدة ، وسار إلى قرية يقال لها شمعون طناح ، فنزل عندها واصبح العسكر، وقد فقدوا سلطانهم ، فركب كل انسان منهم هواه ، ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذي يخفّ حمله ، وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ، ولحقوا بالكامل ، وأما الفرنج فإنهم اصبحوا من الغد، فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطىء النيل كجاري عادتهم ، فبقوا لا يدرون ما الخبر، وإذا قد أتاهم من اخبرهم الخبر على حقيقته ، فعبروا

حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا مانع ، وكان عبورهم في العشرين من في القعدة سنة خمس عشرة وستمائة، فغنموا ما في عسكر المسلمين ، فكان عظيماً يعجز العادين ، وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره ، وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة، فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظَّم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين ، والناس في أمر مريج ، فقوي به قلبه ، واشتد ظهره ، وثبت جنانه ، وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام ، فاتصل بالملك الأشرف ، وصار من جنده ، فلتا عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج .

وكان اضرّ شيء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد لأن السلطان ومن معه من العساكر، كانوا عندها يمنعون العدو عنها ، فأتتهم هذه الحركة بغتة ، فلم يدخلها أحد من العسكر، وكان ذلك من فعل ابن المشطوب ، لا جرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية – على ما نذكره إن شاء الله ، وأحاط الفرنج بدمياط ، وقاتلوها براً وبحراً ، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين ، وهذه كانت عادتهم ، وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها، وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من

الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ، ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة، فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم ، فسلموا البلد إلى الفرنج في هذا التاريخ بالأمان ، فخرج منهم قوة، وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدي سبا .

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط ، اقاموا بها وبثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون ، فجلى أهله عنها، وشرعوا في عمارتها وتحصينها، وبالغوا في ذلك حق انها بقيت لا ترام ، وأما الملك الكامل ، فانه أقام بالقرب منهم في اطراف بلاده

يحميها ، ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم اقبلوا يهرعون من كل فج عميق ، واصبحت دار هجرتهم ، وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدس في ذي القعدة من السنة، وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج ، وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف في شرق الأرض وغربها ، وأقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأران وغيرها-على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

واقبل الفرنج من المغرب ، فملكوا مثل دمياط في الديار المصريّة، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء ، وأشرف على سائر البلاد بمصر والشام وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء ، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ولات حين مناص ، والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ، ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما منعوا منه ، فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه ، المعظم صاحب دمشق ، والملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يمكن ، فيرسلان العساكر إليه ، فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه ، فراه مشغولاً عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه ، وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك - فعذره وعاد عنه ، وبقي الأمر كذلك مع الفرنج ، فأمر الملك الأشرف ، فزال الخلف من

بلاده ، ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور إلى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج ، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم بزوال المانع للأشرف عن انجاده ، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق ، فصار صاحب دمشق يحثه على المسير، ففعل ، وسار إلى دمشق فيمن معه من العساكر والعود إلى بلاده خوفاً من اختلاف يحدث ، فلم يقبل قولهم . وقال : قد خرجت للجهاد ولا بد من إتمام ذلك العزم ، فسار إلى مصر، وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل ، وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله ، بينهما خليج من النيل ، يسمى بحر أشمون ، وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين ، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية ، وأما الأشرف ، فانه

سار حتى وصل مصر،فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجّه إليه فلقيه ، واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً .

وأما الملك المعظم صاحب دمشق ، فإنه سار أيضاً إلى ديار مصر وقصد دمياط ظناً منه أن اخويه وعسكريهما قد نازلوها، وقيل : بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجَّهوا إلى دمياط ، فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم والله أعلم ، ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقرَّ الأمر بينهما على التقدُم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة ، فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج ، وازدادوا قرباً ، وتقدّمت شواني المسلمين من النيل ، وقاتلوا شواني الفرنج ، فاخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال ، وما فيها من الأموال والسلاح ، ففرح المسلمون بذلك ، واستبشروا وتفاءلوا ، وقويت نفوسهم ، واستطالوا على عدوهم . هذا يجري والرسل متردِّدة بينهم في تقرير قاعدة الصلح ، وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط ، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا : لا بد من الكرك ، فبينما الأمر في هذا وهم يمنعون ، فاضطر المسلمون إلى قتالهم ، وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة ايام ظناً منهم أن العساكر الإِسلامية لا تقوم لهم ، وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده اللّه

تعالى بهم ، فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج ، ففجروا النيل ، فركب الماء اكثر تلك الأرض ، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة، فيها ضيق ، فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون ، وعبرت العساكر عليها ، فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج ان أرادوا العود إلى دمياط ، فلم يبقَ لهم خلاص ، واتفق في تلك الحال انه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب ، يسمى مرمة، وحوله عدة حراقات تحميه ، والجميع مملوءة من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه ، فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم ، فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات ، وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلُّوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم ، يرمونهم بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم ، فلما اشتد الأمر على الفرنج

احرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم ، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط ، فرأوا ما أملوه بعيداً ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون ، فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم ، وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها، وان المنايا قد كشّرت لهم عن أنيابها، ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم ، وضلّ عنهم شيطانهم ، فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض ، فبينما المراسلات مترددة اذ اقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط ، فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج ، فاستشعروا ، وإذ هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم ، وكان قد جعل طرِيقه على دمياط – لما ذكرناه – فاشتدت ظهور المسلمين ، وازداد الفرنج خذلاناً ووهناَ وتمموا الصلح على تسليم دمياط ، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشر وستمائة، وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط ، ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم ، وعدتهم عشرون ملكاً ، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها، فلم يمتنع من بها وسلَّموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور، وكان يوماً مشهوداً، ومن العجب ان المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر، فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها، ولكن سبقهم المسلمون ليقضي اللّه أمراً كان مفعولا، ولم يبق بها

من أهلها الا آحاد، وتفرَّقوا أيدي سبا ، بعضهم سار عنها باختياره ، وبعضهم مات ، وبعضهم أخذه الفرنج ، ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً، بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها، وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ، ورده إلى أربابه وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم ، ، فإنهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التي اخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط ، فرزقهم اللّه إعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كفِّ عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر–على ما نذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم ، كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب

الأزج بسبب قتل سبع ، وزاد الشر بينهم ، واقتتلوا، فجرح بينهم كثير، فحضر نائب الباب ، وكفهم عن ذلك ، فلم يقبلوا ذلك واسمعوه ما يكره ، فأرسل من الديوان امير من مماليك الخليفة، فردَّ أهل كل محلة إلى محلتهم ، وسكنت الفتنة.

وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد، فكان الانسان لا يقدر أن يجلس إلا معه عصا يرد الفار عنه ، وكان يرى الكثير منه ظاهراً يتبع بعضه بعضا .

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الغرق ، فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان ، وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد، وقلق الناس لذلك ، وانزعجوا، وعاينوا الهلاك ، واعدوا السفن لينجوا فيها، وظهر الخليفة للناس ، وحثَّهم على العمل ، وكان مما قال لهم : لو كان يفدى ما أرى بمال او غيره لفعلت ، ولو دفع بحرب لفعلت ، ولكن أمر الله لا يرد، ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي ، وغرق كثير منه ، وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي ، وقربة الملكية، والكشك ، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان ، وأما الجانب الغربي ، فتهدم اكثر القرية ، ونهر عيسى ، والشطيات ، وخربت البساتين ، ومشهد باب التين ، ومقبرة احمد بن حنبل ، والحريم الظاهري ، وبعض باب البصرة والدور التي على ش عيسى واكثر محلة قطفتا . وفيها توفّي احمد بن ابي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير الميهني الصوفي ابو الفضل

شيخ رباط الخليفة ببغداد، وكان صالحاً من بيت التصوف والصلاح .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين
وما كان من الفتن بسبب موته إلى ان استقرت الأمور

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، صاحق الموصل ليلة الاثنين ، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول ، وكانت ولايته سبع سنين وتسعة اشهر، وكان موته ، أن أخذته حمى ، ثم فارقته الغد، وبقي يومين موعوكاً، ثم عاؤدته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ، ثم برد بدنه وعرق ، وبقي كذلك إلى وسط الليل ، ثم توفيٍ ، وكان كريماً حليماً قليل الطمع ، في أموال الرعية كافاً عن أذى يوصله إليهم ، مقبلا على لذاته كأنما ينهبها، ويبادر بها الموت ، وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت .

حكى لي بعض من كان يلازمه قال : كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي : قد وجدت ضجراً من القعود، فقم بنا نتمشى إلى الباب العمادي . قال : فقمنا نخرج من داره نحو الباب العمادي ، فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره ، فوقف عندها مفكراً لا يتكلم ، ثم قال لي : والله ما نحن في شيء أليس مصيرنا إلى ههنا وندفن تحت الأرض ، وأطال الحديث في هذا ونحوه ، ثم عاد إلى الدار. فقلت له : ألا نمشي إلى الباب العمادي . فقال : ما بقي عندي نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ، ودخل داره وتوفْي بعد ايام ، وأصيب أهل بلاده بموته ، وعظم عليهم فقده ، وكان محبوباً إليهم قريباً من قلوبهم ، ففي كل دار لأجله رنة وعويل ، ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين ارسلان

شاه وعمره نحو عشر سنين ، وجعل الوصي عليه والمدير لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله ، وقد تقدم من أخباره ما يعرف به محله ، وسيرد منها ايضا ما يزيد الناظر بصيرة فيه ، فلما قض نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين أجلسه في مملكة أبيه ، وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد

والتشريف ، وأرسل إلى الملوك واصحاب الأطراف المجاورين لهم ، يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه ، فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل ما يحتاج إليه ، وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا، وضبط المملكة من التزلزل والتغير، مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك ، فانه كان معه في البلد اعمام أبيه ، وكان معه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بولايته ، وهى قلعة عقر الحميدية يحدث نفسه بالملك لا يشك في أن الملك يصير إليه بعد أخيه ، فرفع بدر الدين ذلك الخرق ، ورتق ذلك الفتق وتابعٍ الإحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم ، فلم يخض بذلك شريفا دون مشروف ، ولا كبيراً دون صغير، واحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس ، وانصاف بعضهم من بعض ، ويعد ايام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية، ولبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريفات لهما أيضاً ، وأتتهم رسل الملوك بالتعزية ، وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لها.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه أعطى ولده الأصغر زنكي قلعتي العقر ؟شوش ،وهما بالقرب من الموصل ، فكان تارة يكون بالموصل ، وتارة بولايته متجنباً لكثرة تلونه ، وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جدّه عز الدين مسعود بن مودود، قيل : إنه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية إليه فنمي الخبر بذلك إلى بدر الدين ، فبادره بالعزل مع امير كبير وجماعة من الجند

لم يمكنه الامتناع ، وسلم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك ، وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نوَّاباً له ، وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضاً من جروح كانت به وغيرها من الأمراض ، وكان يبقى المدَّة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس ، فأرسل زنكي إلى من بالعمادية من الجند يقول : إن ابن اخي توفي ، ويريد بدر الدين يملك البلاد، وأنا أحق بملك آبائي وأجدادي ، فلم يزل حتى استدعاه الجند منها، وسلموا إليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة، وقبضوا على النائب البدري ، وعلى من معه فوصل الخبر إلى بدر الدين ليلاً، فجد في الأمر ونادى في العسكر لوقته بالرحيل ، فساروا مجدين إلى العمادية وحصروها، وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير، فلم

يتمكَّنوا من القتال من بها لكنهم اقاموا يحصرونها، وقام مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب إربل في نصر عماد الدين ، وتجرَّد لمساعدته ، فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود، التي من جملتها انه لا يتعرض إلى شيء من اعمال الموصل ، ومنها قلاع الهكارية والزوزان بأسمائها ، ومتى تعرض اليها احد من الناس من من منعه بنفسه وعساكره ، وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ، ويطالبه بالوفاء بها، ثم نزل عند هذا، ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم ، فلم يفعل ، وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي ، فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكي بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم واعمالها الا ان العسكر البدري محاصر العمادية وبها زنكي .

ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممّن لا علمِ له بالحرب ، وكان شجاعاً، وهو جديد الامارة اراد ان يظهر شجاعته ليزداد بها تقدّماَ، واشار على من هناك من العسكر بالتقدُّم إلى العمادية ومباشرتها بالقتال ، وكانوا قد تأخروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد والثلج ، فلم يوافقوه وقبحوا رأيه ، فتركهم ورحل متقدَّماً اليهم ليلًا، فاضطروا إلى اتباعه خوفاً عليه من اذى يصيبه ، ومن معه ، فساروا إليه على غير تعبية لضيق المسلك ، ولأنه اعجلهم عن ذلك ، وحكم الثلج عليهم ايضا فسمع زنكي ومن معه فنزلوا ولقوا اوائل الناس وأهل مكة اخبر بشعابها ، فلم يثبتوا لهم ، وانهزموا وعادوا إلى منزلتهم ، ولم يقف العسكر عليهم ، فاضطروا إلى العود، فلما عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكارية والزوزان ، واستدعاهم

إلى طاعته فأجابوه ، وسلموا إليه ، فجعل فيها الولاة ، وتسلمها وحكم فيها.

ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده ، واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ، لم ينفع معهم اللين ولا الشدة، وأنهما لا يزالان يسعيان في أخذ بلاده ، ويتعرضان إلى اطرافها بالنهب والأذى، أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل ، وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة، وانتمى إليه وصار في طاعته منخرطاً في سلك موافقته ، فأجابه الأشرف بالقبول والفرح به والاستبشار، وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه ، واستعادة ما أخذ من القلاع التي كانت له ، وكان الملك الأشرف حينئذ بحلب نازلاً

بظاهرها– لما ذكرناه – من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين قونية وغيرها إلى اعمالها، وملكوا بعض قلاعها فأرسل إلى مظفر الدين يقبح هذه الحالة، ويقول له ة إن هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك ، واننا نكون على الناكث إلى إن يرجع إلى الحق ، ولا بد من اعادة ما اخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التي استقرت بيننا، فإن امتنعت ، واصررت على معاضدة زنكي ونصرته ، فأنا اجيء بنفسي وعسكري ، واقصد بلادك وغيرها ، واسترد ما اخذتموه ، واعيده إلى اصحابه ، والمصلحة انك توافق ، وتعود إلى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر، وقصد الديار المصرية، واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم ، ويستطير شرهم ، فلم تحصل بالإجابة منه إلى شيء من ذلك ، وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن ، وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف ، وقصد بعض بلاده ، ونهبها وكذلك صاحب ماردين ، واتفقا مع مظفر الدين ، فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكراً وسيره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم .

ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري

لما عاد العسكر البدري من حصار العمادية ، وبها زنكي – كما ذكرناه – قويت نقمه وفارقها، وعاد إلى قلعة العقر التي له ليتسلط على اعمال الموصل بالصحراء، فان يلد الجبل كان قد فرغ منه ، وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر، فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره إلى اطراف بلد الموصل يحمونها، فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ، ثم إنهم اتفقوا بينهم على المسير إلى زنكي ، وهو

عند العقر في عسكره ومحاربته ، ففعلوا ذلك ، ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل اعلموه بمسيرهم جريلة، ليسر معهم إلا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها ، فساروا ليلتهم وصبحوا زنكي بكرة الأحد لأربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة، فالتقوا واقتتلوا تحت العقر ؛ وعظم الخطب ، فأنزل الله نصره على العسكر البدري ، فانهزم عماد الدين وعسكره ، وسار إلى إربل منهزماً ، ،وعاد العسكر البدري إلى منزلته التي كان بها ، وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ، ومن الملك الأشرف في تجديد الصلح ، فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل .

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه

ولمّا تقرر الصلِح توفي نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل ، وكان لا يزال مريضاَ بعدّة امراض ، فرتب بدر الدين في الملك بعده أخاه ناصر الدين ، وله من العمر نحو ثلاث سنين ، ولم يكن للقاهر ولد غيره ، وحلف له الجند وركبه ، فطابت نفوس الناس ، لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه ، فلما ركبوا هذا علموا ان لهم سلطاناً من البيت الأتابكي ، فاستقروا واطمأنوا ، وسكن كثير من الشغب بسببه .

ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين

لما توفي نور الدين ، وملك اخوه ناصر الدين تجدَّد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين ، فجمعا الرجال ، وتجهزا للحركة، فظهر ذلك ، وقصد بعض اصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد، وكان بدر الدين قد سيَّر ولده الأكبر في جمع صالح من العسكر، إلى الملك الأشرف ، بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، وهو يريد ان يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام ينهبها ، ويخربها ليعود بعض من بدمياط إلى بلادهم ، فيخف الأمر على الملك الكامل صاحب مصر، فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين ، وأن بعض عسكره بالشام أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذي بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم ، وكان المقدم عليهم مملوك الأشرف ، اسمه أيبك فسار إلى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة، فلما رآهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا اقل من العسكر الذي له بالشام أو مثلهم ، فألح ايبك على عبور دجلة ، وقصد بلاد إربل ، فمنعه بدر الدين من ذلك

وأمره بالاستراحة ، فنزل بظاهر الموصل أياماً ، وأصر على عبور دجلة ، فعبرها بدر الدين موافقة له ، ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره ، وسار إليهم ومعه زنكي ، فعبر الزاب ، وسبق خبره ، فسمع به بدر الدين ، فعبى اصحابه ، وجعل ايبك في الجالشية، ومعه شجعان أصحابه ، وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه إلا اليسير، وجعل في مسيرته اميراً كبيراً ، وطلب الانتقال عنها إلى الميمنة، فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة اعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى الميسرة، والخصم

بالقرب منهم ، فمنعه بدر الدين ، وقال : متى انتقلت انت ومن معك في هذا الليل ، ربما ظنه الناس هزيمة، فلا يقف احد، فأقام بمكانه ، وهو في جمع كبير من العسكر، فلما انتصف الليل سار أيبك ، فأمره بدر الدين بالمقام إلى الصبح لقرب العدو منهم ، فلم يقبل لجهله بالحرب ، فاضطر الناس لاتباعه ، فتقطعوا في الليل ، والظلمة والتقوا هم والخصم في العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل ، فأما عز الدين ، فإنه تيامن والتحق بالميمنة، وحمل في اطلابه ، هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين ، فهزمها، وبها زنكي ، وكان الأمير الذي انتقل إلى الميمنة قد ابعد عنها، فلم يقاتل ، فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم إليه مظفّر الدين ، فيمن معه في القلب لم يتفرقوا، فلم يمكنه الوقوف ، فعاد إلى الموصل وعبر دجلة إلى القلعة، ونزل منها إلى البلد، فلما رآه الناس فرحوا به ، وساروا معه ، وقصد باب الجسر، والعدو بإزائه بينهما دجلة، فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره ، وزايل حصن نينوى، فأقام ثلاثة أيام ، فلما رأى اجتماع العسكر البدري بالموصل ، وأنهم لم يفقد مفهم إلا اليسيرة وبلغه الخبر ان بدر الدين يريد العبور إليه ليلاً بالفارس والراجل على الجسور، وفي السفن ، ويكبسه ، فرحل ليلاً من غير أن يضرب كأساً أو بقواً ، وعادوا نحو أربل ، فلما عبروا الزاب نزلوا، ثم جاءت الرسل وسعوا في الصلح ، فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء هو له ، وتقررت العهود والأيمان على ذلك .

ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الأشرف سنجار

كواشي هذه من احصن قلاع الموصل وأعلاها وأمنعها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعل أهل العمادي وغيرها من التسليم إلى زنكي ، وانهم قد تحكموا في القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك ، فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم ، وامتنعوا بها، وكانت رهائنهم بالموصل ، وهم يظهرون طاعة بدر الدين ، ويبطنون المخالفة ، فتردَّدت الرسل في عودهم إلى الطاعة ، ، فلم يفعلوا ، وراسلوا زنكي في المجيء إليهم ، وتسلم القلعة وأقام عندهم ، فروسِل مظفر الدين يذكر بالإيمان القريبة العهد، ويطلب منه إعادة كواشى ، فلم تقع الِإجابة إلى ذلك حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف ، وهو بحلب يستنجده .، فسار وعبر الفرات إلى حرَّان ، واختلفت عليه الأمور

من عدة جهات منعته من سرعة السير، وسبب هذا كان الاختلاف ان مظفر الدين كان يراسل الملوك اصحاب الأطراف ليستميلهم ، ويحسن لهم الخروج على الأشرف ، ويخوفهم منه إذا خلى وجهه ، فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكاوس كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وصاحب آمد وحصن كيفا ، وصاحب ماردين ، واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له في بلادهم ، ونحن نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند منبج لمًا قصد بلاد حلب ، فهو موغر الصدر عليه ، فاتفق ان كيكاوس مات في ذلك الوقت ، وكفي الأشرف وبدر الدين شره ، ولا جدالا ما أقعص عنك الرجال ، وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم ، فأجابوه منهم احمد ابن علي بن المشطوب – الذي ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل – وهو أكبر أمير معه ، ووافقه غيره ، منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما ، وفارقوا الأشرف ، ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشراف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين ، فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف وفارقهم ، واستقر الصلح بينهما، وسلم إليه الأشرف مدينة حاني وجبل جوز، وضمن له أخذ دارا وتسليمها إليه ، فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم ، فاضطر بعض أولئك الأمراء إلى العود إلى طاعة الأشرف ، وبقي ابن المشطوب ، وحده فسار إلى نصيبين ليسير إلى إربل ، فخرج إليه شحنة نصيبين ، فيمن عنده من الجند، فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب ، وتفرق من

معه من الجمع ، ومضى منهزماً، فاجتاز بطرف بلد سنجار، فسيَّر إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكراً فهزموه وأخذوه أسيراً وحملوه إلى سنجار، وكان ص احبها موافقاً للأشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الأشرف فأجابه إلى ذلك ، وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد، فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ، ونهبوا فيها عدة قرى، وعادوا إلى سنجار، ثم ساروا وهم معهم إلى تل يعفر(1) وهي لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا في تلك الناحية، فلما سمع بدر الدين بذلك سيَّر إليه عسكراً، فقاتلوهم ، فمضى منهزماً، وصد إلى تل يعفر، واحتمى بها منهم ونازلوه وحصره فيها، فسار بدر الدين من الموصل إليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة

(1) تل يعفر: هذا قول الخاصة، أما قول العامة: تل اعفر، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ.

وستمائة ، وجد في حصره ، وزحف إليها مرة بعد أخرى، فملكها سابع عشر ربيع الآخرة من هذه السنة، وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل ، فسجنه بها، ثم أخذه منه الأشرف . فسجن بحران إلى ان توفّي في ربيع الاخر سنة تسع عشرة وستمائة ، ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط .

وأما الملك الأشرف ، فإنه لما اطاعه صاحب الحصن وآمد، وتفرق الأمراء - كما ذكرناه - رحل من حرّان إلى دُنَيْسر، فنزل عليها، واستولى على بلد ماردين ، وشحن عليه وأقطعه ومنع الميرة عن ماردين ، وحضر معه صاحب آمد ، وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح ، فاصطلحوا على ان يأخذ الأشرف رأس العين ، وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين ، ويأخذ منه ايضا ثلاثين ألف دينار، ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان ، فلما تم الصلح سار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها إليه ، ويطلب العوض عنها مدينة الرقة ، وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه ، فانخلع قلبه ، وانضاف إلى ذلك أن ثقاته ونصحاءه خانوه ، وزادوه رعباً وخوفاً لأنهم تهددوه ، فتغدوا به قبل ان يتعشى بهم ، ولأنه قطع رحمه ، وقتل اخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله -كما نذكره إن شاء اللّه -وملكها فلقاه الله سوء فعله ، ولم يمتعه بها، فلما تيقن رحيل الأشرف تحيَّر في الأمر، فأرسل في التسليم إليه ، فأجابه الأشرف إلى العوض ، وسلم إليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى

الأولى سنة سبع عشرة وستمائة ، وفارقها صاحبها واخوته بأهليهم وأموالهم ، وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكي بسنجار، فسبحان الحيِّ الذي ليس لملكه آخر، وكان مدَّة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة، وهذا دأب الدنيا بأبنائها، فتعساً لها من دار ما أغدرها بأهلها .

ذكر وصول الأشرف إلى الموْصِل والصلح مع مظفَّر الدين

لما ملك الملك الأشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فَقَدَمَ بين يديه عساكره ، فكان يصل كل يوم منهم جمعٌ كثيرٌ ، ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان يوم وصوله مشهوداً وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح ، وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية، فإنها تبقى بيد زنكي ، وأن المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ،

ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج ، وطال الحديث في ذلك نحو شهرين ، ثم رحل الأشرف يريد مظفَّر الدين صاحب إربل ، فوصل إلى قرية السّلامية بالقرب من نهر الزاب ، وكان مظفَّر الدين نازلاً عليه من جانب إربل ، فأعاد الرسل .

وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه إلى مظفر الدين فأشار بالاجابة إلى ما بذل وأعانه عليه غيره ، فوقعت الاجابة إليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها أجل . وحمل زنكي إلى الملك الأشرف يكون عنده رهينة إلى حين تسليم القلاع ، وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضاً وهما لزنكي إلى نواب الأشرف رهناً على تسليم ما استقرّ من القلاع ، فإذا سلّمت أطلق زنكي . . وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلّم الأشرف إلى زنكي القلعتين ، وعاد إلى سنجار ، وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة ، فأرسلوا إلى القلاع لتسلم إلى نواب بدر الدين ، فلم يسلم إليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكاريّة ، وأما باقي القلاع ، فإن جندها أظهروا الامتناع من ذلك ، ومضى الأجل ولم يسلم الأجل صوراً ولزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي بن الملك العادل وخدمه وتقرب إليه فاستعطف له أخاه الملك الأشرف ، فمال إليه وأطلقه ، وأزال نوابه من قلعة العقر وشوش ، وسلمها إليه وبلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تل يعفر ، وأنها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه ، وطال الحديث في ذلك ، فسلمها إليه بدر الدين .

ذكر عود قلاع الهكّارية والزوزان إلى بدر الدين

لما ملك زنكي قلاع الهكّارية والزوزان لم يفعل مع اهلها ماظنوه من الاحسان والإنعام ،بل فعل ضده وضيَّق عليهم ، وكان يبلغهم افعال بدر الدين مع جنده ورعاياه وإحسانه اليهم وبذله الأموال لهم ، وكانوا يريدون العود إليه ويمنعهم الخوف منه لِما اسلفوه من ذلك ، فلمّا كان الآن اعلنوا بما فعل معهم ، فأرسلوا إلى بدر الدين في المحرّم سنة ثمان عشرة وستمائة في التسليم إليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم وذكروا شيئاً من اقطاع تكون لهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك ، فلم يأذن له ، وعاد زنكي من عند الأشرف ، فجمع جموعاً ، وحصر قلعة العمادية ، فلم يبلغ منهم غرضاً، واعادوا مراسلة بدر الدين التسليم إليه ، فكتب إلى

الملك الأشرف في المعنى ،وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له في أخذها ، فاذن له ، فأرسل اليها النواب وتسلموها ، واحسن إلى أهلها ، ورحل زنكي عنها، ووفى له بدر الدين بما بذله له ، فلما سمع جندياً في القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الاحسان والزيادة ورغبوا كلهم في التسليم ، فسيّر اليهم النّواب ، واتفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه ، والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها في استعادة هذه القلاع ، فلم يقدروا على ذلك ، فلما تفرَّقوا حضر اهلها ، وسألوا ان تؤخذ منهم ، فعادت صفواً عفواً بغير منة ولقد احسن من قال :

لا سهْلَ إلا ما جعلتَ سهلاً وإن تَشَأْ تجعلْ بِحُزْنٍ وَحْلاً

فتبارك الله الفعّال لِما يريد لا مانع لِما اعطى ولا معطي لِما منع وهو على كل شيء قدير .

ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانهزام كيكاوس

في هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيسخرو ملك الروم إلى ولاية حلب قصداً للتغلب عليها، ومعه الأفضل بن صلاح الدين يوسف ، وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شرٌّ كثير وسعاية بالناس ، فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته ، فأوغروا صدره ، فلقي الناس منهما شذَة، فلما توفّي الظاهر وولي الأمر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيّرهما ممن يفعل فعلهما، وسدّ هذا الباب على فاعله ، ولم يطرق إليه احداً من أهله ، فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر، فخافا ففارقا حلب ،

وقصدا كيكاوس ، فأطمعاه فيها، وقررا في نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه ، وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها، فلمّا عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من اصحابه ، وقالوا له لا يتم لك هذا الا بأن يكون معك احد من بيت أتُوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه ، وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك ، والمصلحة أنك تستصحبه معك ، وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد ، فمتى كان معك اطاعك الناس ، وسهل عليك ما تريد ، فأحضر الأفضل من سميساط إليه وأكرمه ، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك ، واستقرّت القواعد بينهما ان يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل ، وهو في طاعة كيكاوس ، والخطبة له

ذلك أجمع ، ثم يقصدون ديار الجزيرة، فما يفتحونه مما بيد الملك الأشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس ،وجرت الأيمان على ذلك " وجمعوا العساكر، وساروا فملكوا قلعة رعيان ، فتسلمها الأفضل ، فمال الناس حينئذ اليهما، ثم سارا إلى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم الياروقي ، فحمروه وضيقوا عليه ، وملكوها منه ، فأخذها كيكاوس لنفسه ، ولم يسلمها إلى الأفضل ،فاستشعر الأفضل من ذلك وقال : هذا أول الغدر، وخاف انه ان ملك حلب يفعل به هكذا، قلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره ، ففترت نيته ، واعرض عما كان يفعله ، وكذلك أيضاً أهل البلاد فكانوا يظنون أن الأفضل يملكها فيسهل عليهم الأمر ، فلما رأوا ضد ذلك وقفوا .

واما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر صاحب حلب ، فإنه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة ، وهذه كانت عادته مذمات الظاهر خوفاً من ثائر يثور به ، قلما حدث هذا الأمر خاف ان يحصروه ، وربما سلم أهل البلد والجند والمدينة إلى الأفضل لميلهم إليه ، فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه ، لتكون طاعتهم له ، ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار، ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته ، فاجاب إلى ذلك ، وسار إليهم قي عساكره التي عنده ، وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه ، وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم ، وأحضر إليه العرب من طيء وغيرهم ، ونزل بظاهر حلب ،ولما اخذ كيكاوس تل باشر كان الأفضل يشير

بمعالجة حلب قبل اجتماع العساكر بها، وقبل أن يحتاطوا او يتجهزوا ،فعاد عن ذلك وصار يقول : الرأي اننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء قصداً للتمادي ومرور الزمان في لا شيء ، فتوجهوا من تل باشر إلى جهة منبج ، وتقدم الأشرف نحوهم ، وسارت العرب في مقدمته ، وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو الف فارس قد سبقت مقدمته له ، فالتقوا هم والعرب ومن معهم من ا لعسكر الأشرفي ، فاقتتلوا ، فانهزم عسكر كيكاوس ، وعادوا إليه منهزمين ، واكثر العرب الأسر منهم ، والنهب لجودة خيلهم ، ودير خيل الروم ، فلما وصل إليه اصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوي المراحل إلى بلاده خائفاً يترقب ، فلما وصل إلى اطرافها أقام وإنما فعل هذا لأنه صبي غرّ لا معرفة له بالحرب ، وإلا فالعسكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض ، فسار حينئذ الأشرف فملك رعيان وحصر تل باشر وبها

جمع من عسكر كيكاوس ، فقاتلوه حتى غلبوا ، فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الأشرف ، فلما وصلوا إلى كيكاوس جعلهم في دار وأحرقها عليهم ، فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه –لا جرم لم يمهله الله تعالى – وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة في قلبه ، ومات عقيب هذه الحاثة، وسلم الأشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أتابك صاحب حلب ، وكان عازماً على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده ، فأتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل ، فاقتضت المصلحة العود إلى حلب لأن الفرنج بديار مصر، ومثل ذلك السلطان العظيم إذا توفي ربما جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه ، فعاد إليها، وكفي كل منهما أذى صاحبه .

ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده

توفّي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادي الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة، وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه اسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه ، وسار إلى الشام استخلفه بمصر ثقة به ، واعتماداً عليه ، وعلماً بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة، فلما توفي أخوه صلاح الدين ، ملك لمشق –كما ذكرناه –وبقي مالكاً للبلاد إلى الآن ، فلما ظهر الفرنج – كما ذكرناه سنة أربع عشر وستمائة – قصد هو مرج الصفر، فلما سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو إلى عالقين ، فأقام به ومرض وتوفي وحمل إلى دمشق فدفن بالتربة التي له ، وكان عاقلًا ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة ، صبوراً حليماً ذا أتاه

يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف في شيء وإذا لم تكن حاجة فلا، وكان عمره خمساً وسبعين سنة وشهوراً لأن مولده كان في المحزم من سنة أربعين وخمسمائة، وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الأفضل ابن أخيه ، وملك مصرفي ربيع الآخر من سنة مت وتسعين منه أيضاً، ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الأفضل مملكة قط الا وأخذها منه عقه العادل فأول ذلك أن صلاح الدين اعطى ابنه الأفضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقي الدين ، فسار إليها فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب ، وأخذ هذه البلاد منه ، ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق ، فأخذها منه ، ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز،

فأخذها أيضاً منه ، ثم ملك صرخد فأخذها منه ، وأعجب من هذا أنّني رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذي بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق ، ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل طلبها منه فأخذها وهذا غاية ، وهو من اعجب ما يحكى ، وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده ، فجعل بمصر الملك الكامل محمداً، وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جعفر لولده الحافظ أرسلان شاه ، فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه ، واتفقوا اتفاقاً حسناً لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق إلى الآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ، ولا يخافه ، فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره ابوهم ، ولعمري أنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام ، وفي نوبة دمياط كفاية . وأما الملك الأشرف ، فليس للمال عنده محل بل يمطره مطراً كثيراً ، كعفته عن أموال الرعية دائم الاحسان لا يسمع سعاية ساع .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ذي القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لأنه بلغه أن جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه فخافهم ، ففارق

منزلته ، فانتقل الفرنج إليها ، وحصروا حينئذ دمياط براً وبحراً ، وتمكنوا من ذلك ، وقد تقدم مستقصى سنة اربع عشرة وستمائة.

وفيها في المحرّم توفي شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعي ،وكان مدرساً في عدة مدارس بالموصل ، وكان صالحاً كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله.

وفيها توفي عز الدين نجاح الشرابي خاص الخليفة واقرب الناس إليه ، وكان الحاكم في دولته كثير العدل والاحسان والمعروف والعصبية للناس ، وأما عقله وتدبيره

فإليه كانت النهاية وبه يضرب المثل .

وفيها توفي علي بن نصر بن هارون أبو الحسن الحلي النحوي الملقب بالحجة ، قرأ على الخشاب وغيره .

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه

في هذه السنة توفيّ الملك الغالب عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم ، وكان قد جمع عساكره ، وحشد، وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد، ومظفر الدين صاحب إربل ، وكانوا قد خطبوا له ، وضربوا اسمه على السكة في بلادهم ، واتفقوا على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل ، فسار كيكاوس إلى ملطية ليمنع الملك الأشرف عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضاً، وكان قد علق به السل ، فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفي وملك بعده أخوه كيقباذ، وكان محبوساً قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد، وأشار عليه بعض أصحابه بقتله ، فلم يفعل ، فلما توفي لم يخلف ولداً يصلح للملك لصغرهم ، فاخرج الجند كيقباذ وملكوه ومن بغِيَ عليه لينصرنه الله ، وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتد مرضه ، فأحضره عنده من السجن ، ووصى له بالملك ، وحلف الناس له ، فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم ، وخاف أيضاً من الروم المجاورين لبلاده ، فأرسل إلى الملك الأشرف ، وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد ، وتصاهرا ، وكفى الأشرف شر تلك الجهة ، وتفرغ باله لاصلاح ما بين يديه ، ولقد صدق القائل : (وجدك طعان بغير سنان)، وهذا ثمرة حسن النية، فانه حسن النية لرعيته وأصحابه ، كافاً عن أذى يتطرق إليهم

منه غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده بأذى، وملك مع ضعف أصحابها وقوته ،لا جرم تأتيه البلاد صفواً عفواً.

ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه

وفي هذه السنة ثامن صفر توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي ، صاحب سنجار، وكان كريماً، حسن السيرة في رعيته ، حسن المعاملة مع التجار، كثير الاحسان إليهم ، وأما أصحابه ، فكانوا معه في أرغدعيش ، يعمهم بإحسانه ولا يخافون أذاه ، وكان عاجزاً عن حفظ بلده مسلماً الأمور إلى نوابه ، ولما توفي ملك بعله ابنه عماد الدين شاهانشاه ، وركب الناس معه ، وبقي مالكاً لسنجار عدة شهور، وسار إلى تل أعفر، وهي له ، فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكي ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده ، فبقي كذلك إلى أن سئم سنجار إلى الملك الأشرف – على ما نذكره إن شاء الله تعالى – ولم يمتع بملكه الذي قطع رحمه وأراق الدم الحرام لأجله ، ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة، ثم أخذت منه عن قريب ، وتوفي بعد أخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه ، وهذه عاقبة قطيعة الرحم ، فإن صلتها نزيد في العمر وقطيعتها تهدم العمر .

ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح وقتلهم

في هذه السنة في ذي القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتال بني معروف ، فتجهَّز وجمع معه من الرحالة من تكريت ، وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقاً كثيراً ، وسار إليهم ، ومقدّمهم حينئذ معلى بن معروف ، وهم قوم من ربيعة، وكانت بيوتهم غربي الفرات تحت سوراء، وما يتصل بذلك من البطائح ، وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا في النواحي

المقاربة لبطيحة الغراف ، فشكا أهل تلك البلاد الديوان منهم ، فأمر معداً أن يسير إليهم في الجموع ، فسار إِليهم ، فاستعد بنو معروف لقتاله ، فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر، وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف ، وكثر القتل بينهم ، ثم انهزم بنو معروف ، وكثر القتل فيهم والأسر والغرق ، وأخذت أموالهم ، وحملت رؤوس كثيرة من القتلى إلى بغداد في ذي الحجة من السنة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرم ، انهزم عماد الدين زنكي من عسكر بدر الدين .

وفيها في العشرين من رجب ، انهزم بدر الدين من مظفّر الدين صاحب إربل ، وعاد مظفر الدين إلى بلده ، وقد تقدم ذلك مستوفى في سنة خمس عشرة وستمائة .

وفيها في السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة دمياط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحاً .

وفيها توفي افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي العباسي الفقيه الحنفي ،رئيس الحنفية بحلب ، روى الحديث عن عمر البسطامي نزيل بلخ ، وعن أبي سعد السمعاني وغيرهما .

وفيها توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبري الضرير النحوي .

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أبي محمد القاسم بن علي بن الحسن بز، عبد الله الدمشقي ، الحافظ بن الحافظ المعروف بابن عساكر، وكان قد قصد خراسان ، وسمع بها الحديث ، فأكثر ، وعاد إلى بغداد ، فوقع على القفل حرامية ، فجرح وبقي ببغداد ، وتوفي في جمادى الأولى – رحمه الله – .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيتُ عدَّةً سنين معرضاً كل ت ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ،فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل ، وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة، منها أضعاف البيت المقدس . وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم ، وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجّال ، فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة

التي استطار شررها ، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح ، فان قوماً خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى ، وغيرهما ، فيملكونها ، ويفعلون بأهلها – ما نذكره –ثم تعبر طائفة

منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلًا ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل ، وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينجُ إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم لتا فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربندشروان ، فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم .

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء النرعليها، فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة، وأعمالا وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد ، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فان الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض ، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلًا، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ، ويترقب وصولهم إليه ، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم ، فانهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما

دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج ، وأما ديانتهم ، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه ، ولقد بلي الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها، هؤلاء التتر– قبحهم الله – أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى .

ومنها خروج الفرنج – لعنهم الله – من المغرب إلى الشام ، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف

الله تعالى ونصره عليهم – وقد ذكرناه – سنة أربع عشرة وستمائة .

ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين ، فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق – وقد ذكرناه أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده ، فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم { وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال } فان هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على اللإد، وقتل ملوكها، وأفناهم ، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها { ليقضي الله أمراً كان مفعولا } وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد .

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الاسلام ، وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين ، وبينها وبين بلاد الاسلام ما يزيد على ستة أشهر، وكان السبب في ظهورهم أن ملكهم ، ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين ، كان قد فارق بلاده ، وسار إلى نواحي تركستان ،وسير جماعة من التجار والأتراك ، ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار، وهي آخر ولاية خوارزمشاه ، وكان له نائب هناك ، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ، ويذكر له ما معهم من الأموال ، فبعث إليه

خوارزمشاه يأمر بقتلهم ، وأخذ ما معهم من الأموال ،وإنفاذه إليه ، فقتلهم وسيَّر ما معهم ، وكان شيئاً كثيراً ، فلما وصل إلى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند ، وأخذ ثمنه منهم ، وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان ، وما بعدها من البلاد، وأن طائفة من التتر أيضاً كانوا قد خرجوا قديماً والبلاد للخطا ، فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، وقتلهم ، واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون ، وغيرها ، صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه ، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات

وغيرها، وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر :

فكانَ مَا كَان مما لستُ أذكُرُهُ فَظُنً خيراً ولا تسأل عَنِ الخَبَرِ

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان ، لينظر ما هو، وكم مقدار ما معه من اليزك ، وما يريد أن يعمل ، فمضى الجواسيس ، وسلكوا المفازة والجبال التي على طريقهم حتى وصلوا إليه ، فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم ، وأنهم يخرجون عن الاحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم ، فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم ، وأخذ أموالهم ، وحصل عنده فكر زائد ، فأحضر الشهاب الحيوفي ، وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به ، فحضر عنده فقال له : قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك في الذي نفعله ، وذاك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى، فقال له : عساكرك كثيرة ونكاتب الأطراف ، ونجمع العساكر، ويكون النفير عاماً، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ، ثم نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون ، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام ، فتكون هناك ، فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ، ونحن مستريحون ، وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب ، فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم ، فلم يوافقوه على رأيه بل

قالوا نتركهم يعبرون سيحون إلينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق ، فإنهم جاهلون بطرقهم ، ونحن عارفون بها ، فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم ، فلا ينجو منهم أحد، فبينما الأتراك كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ، ويقوك تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم ، استعدوا للحرب ، فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به .

وكان جنكز خان قد سار إلى تركستان ، فملك كاشغار وبلاساغون ، وجميع البلاد ، وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا ، وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزمشاه ، فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل ، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه ، وأعادهم إلى صاحبهم جنكز

خان يخبرونه بما فعل بالرسول ، ويقولون له إن خوارزمشاه يقول لك : أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك ، وتجهَّز خوارزمشاه ، وسار بعد الرسول مبادراً ليسبق خبره ، ويكبسهم ، فأدمن السير، فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم ، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال ، فأوقع بهم وغنم الجميع ، وسبى النساء والذرية، وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له : كشلوخان ، فقاتلوه وهزموه ، وغنموا أمواله ، وعادوا ، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم ، فجدوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم ، وتصافوا للحرب ، واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله ، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يعد، ولم ينهزم أحد منهم .

أما المسلمون ، فإنهم صبروا حمية للدين ، وعلموا أنهم إن إنهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم ، وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم ، واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلاً ، ويتضاربون بالسكاكين ، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنقد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكيز خان ، ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها، فأحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة، فكانوا عشرين ألفاً، وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم ، فلما كان الليلة الرابعة

افترقوا، فنزل بعضهم مقابل بعض ، فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً كل منهم سئم القتال ، فأما الكفار، فعادوا إلى ملكهم جنكزخان ، وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لأن طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم ، فكيف إذا جاؤا جميعهم مع ملكهم ، فأمر أهل بخارى،وسمرقند بالاستعداد للحصار، وجمع الذخائر للامتناع ، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحملونها، وفي سمرقند خمسين ألفاً، وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان ، وأجمع العساكر واستنجد بالمسلمين ، وأعود إليكم ، فلما فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خراسان ، فعب جيحون ونزل بالقرب من بلخ ، فعسكر هناك ، وأما الكفار فإنَّهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول

خوارزمشاه وحصروها، وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متت بعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان ، فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم ، فأرسلوا القاضي ، وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الأمان للناس ، فأعطوهم الأمان ، وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم ، فاعتصموا بالقلعة، فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة، فدخل الكفار بخارى، ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه إلينا وساعدونا على قتال من بالقلعة، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جنكزخان بنفسه ، وأحاط بالقلعة، ونادى في البلد بأن لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل ، فحضروا جميعهم ، فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب ، وغير ذلك ، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق ، فإنا لله وإنا إليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبوراً حليماً وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا .

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين ، فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ، ووصل النقابون إلى سور القلعة ، فنقبوه ، واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام ، فغضب اللعين ورد أصحابه

ذلك اليوم وباكرهم من الغد، فجدوا في القتال ، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم مالا قبل لهم به ، فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤوس البلد ورؤساؤهم ، ففعلوا ذلك ، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم ، فحضروا فقال أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه ، فإنها لي ومن أصحابي أخذت ، وهي عندكم ، فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ، ثم أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه ، وأحاط بالمسلمين ، فأمر أصحابه أن يقتسموهم ، فاقتسموهم ، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ،

وتفرقوا أيدي سبا، وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ، ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم ، فمنعهم من لم يرض بذلك ، واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل .

وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين إمام زاده وولده ، فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا، وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيراً وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال ، ثم رحلوا نحو سمرقند ،وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم ، وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل ، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيَّالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئاً فشيئاً ليكون أرعب لقلوب المسلمين ، فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه ، فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجالة والأثقال ، ومع كل عشرة من الأسارى علم فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية ، وأما عامة البلد : فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لِما في قلوبهم من خوف هؤلاء

الملاعين ، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعوهم ، ويطمعون فيهم ، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب ، فلم يسلم منهم أحد، قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم ، وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل ، فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك، فقال الجند، وكانوا أتراكاً : نحن من جنس هؤلاء ولا ويقتلوننا، فطلبوا الأمان ، فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم ، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم ، فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ، ونحن نسيركم إلى مأمنكم ، ففعلوا ذلك ، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم ، وأخذوا أموالهم ودوابهم

ونساءهم،فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله،وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال ، وقتلوا من لم يصلح للسبي ، وكان ذلك في المحرّم سنة سبع عشرة وستمائة، وكان خوارزمشاه بمنزلته ، كلما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند ، فيرجعون ولا يقدمون على الوصول إليها نعوذ بالته من الخذلان سيّر مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً .

ذكر مسير التتر إلى خوارزمشاه وانهزامه وموته

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان – لعنه الله – وسيّر عشرين ألف فارس ، وقال لهم : اطلبوا خوارزمشاه أين كان ، ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه ، فوصلوا إليه ، فلم يجدوا هناك سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة ، فلم يشعر خوارزمشاه إلا وقد

صاروا معه على أرض واحدة، وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وقد اختلفوا فيما بينهم أنهم كانوا يتماسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم ، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا، وطلب كل طائفة منهم جهة، ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته ، وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها، وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلون حتى يجمع لهم ، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى ما زندران ، وهي له أيضاً، فرحل التتر المغربون في أثره ، ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه ، فكان كلما رحل عن

منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون ، وله هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر، وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الري وما بعدها على ما نذكره إن شاء اللهّ هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارى،وأسروه معهم إلى سمرقند ، ثم نجا منهم ووصل إلينا ، وذكر غيره من التجار أن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الري ، ثم منها إلى همذان ، والتتر أثره ، ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره ، وعاد إلى مازندران ، وركب في البحر إلى هذه القلعة، وكان هذا هو الصحيح ، فإن الفقيه كان حينئذ مأسوراً، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ، ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر، ففارق همذان ، وكذلك أيضاً هؤلاء التجار فارقوها، ووصل الشر إليها بعدهم ببعض نهارفهم يخبرون عن مشاهدة، ولما وصل خوارزمشاه إلى هذه القلعة المذكورة توفي فيها .

ذكر صفة خوارزمشاه وشيء من سيرته

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش ، وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً تقريباً، واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه ، فإنه ملك من حد العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان ، وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة ، وملك بلادهم ، وكان فاضلاً عالماً بالفقه

والأصول وغيرهما ، وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم ،يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير ، غير متنعم ولا مقبل على اللذات ، إنما همه في الملك وتدبيره ، وحفظه وحفظ رعاياه ، وكان معظماً لأهل الدين ، مقبلاً عليهم ، متبركاً بهم .

حكى لي بعض خدم حجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد عاد من خراسان قال : وصلت إلى خوارزم ، فنزلت ودخلت الحمّام ، ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فحين حضرت لقيني إنسان ، فقال : ما حاجتك ؟ فقلت له : أنا من خدم حجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – فأمرني

بالجلوس وانصرف عني ثم عاد إلي واخذني وأدخلني إلى دار السلطان ، فتسلمني منه حاجب من حجاب السلطان ، وقال لي قد اعلمت السلطان خبرك ، فأمر بإحضارك عنده ، فدخلت إليه ، وهو جالس في صدر إِيوان كبير، فحين توسطت صحن الدار قام قائماً ومشى إلي بين يدي ، فأسرعت السير فلقيته في وسط الايوان ، فأردت ان اقبل يده ، فمنعني واعتنقني وجلس وأجلسني إلى جانبه ، وقال لي أنت تخدم حجرة النبي – صلى الله عليه وسلم –؟ فقلت : نعم ، فاخذ يدي وأمرها على وجهه ، وسألني عن حالنا، وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها، وأطال الحديث معي ، فلما خرجت من عنده ، قال : لولا أننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك إنما نريد أن نعبر جيحون إلى الخطا، وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبي – صلى الله عليه وسلم–، ثم ودعني ، وأرسل إلي جملة كثيرة من النفقة، ومضى ، وكان منه ومن الخطا – ما ذكرناه – وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرَّق في غيره من ملوك العالم – رحمه الله –، ولو اردنا ذكر مناقبه لطال .

ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران

لما أيس التتر المغربة من إدراك خوارزمشاه ، عادوا فقصدوا بلاد مازندران ، فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها، وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها ، فإنها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه ، حف ان المسلمين لمَا ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصي خراسان ، بقيت اعمال مازندران ، يؤخذ منهم الخراج ، ولا يقدرون على دخول البلاد إلى ان ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين ،

وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى ، ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري ، فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها، خافت ، ففارقت خوارزم ، وقصدت نحو الريّ لتصل إلى أصفهان وهمذان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها في الطريق وما معها قبل وصولها إلى الري ، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم ، وما لم يشاهد الناس مثله ، من كل غريب من المتاع ، ونفيس من الجواهر، وغير ذلك ، وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند .

ذكر وصول التتر إلى الري وهمذان

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر– لعنهم الله – إلى الري في طلب خوارزمشاه محمد لأنهم بلغهم أنه مضى منهزماً منهم نحو الري ، فجدوا السير في أثره ، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار، وكذلك ايضا من المفسدين من يريد النهب والشر، فوصلوا إلى الري على حين غفلة من اهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا اليها وملكوها ، ونهبوها ، وسبوا الحريم ، واسترقوا الأطفال ، وفعلوا الأفعال التي لم يسمع بمثلها، ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارزمشاه ، فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مرُوا عليها، وفعلوا في الجميع اضعاف ما فعلوا في الري ، وأحرقوا وخربوا، ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال ، فلم يبقوا على شيء ، وتموا على حالهم إلى همذان ، وكان خوارزمشاه قد وصل اليها في نفر من اصحابه ، ففارقها وكان آخر العهد به ، فلا يدرى ما كان منه ، فيما حكاه بعضهم عنه ، وقيل : غير ذلك وقد ذكرناه ، فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم ، ثم فارقوها ، وساروا إلى زنجان ، ففعلوا أضعاف ذلك ، ثم وصلوا إلى قزوين ، فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم ، فقاتلوهم وجدوا في قتالهم ، ودخلوها عنوة بالسيف ، فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين ، فقتل من الفريقين ما لا يُحصى، ثم فارقوا قزوين ، فعد القتلى من أهل قزوين ، فزادوا على أربعين الف قتيل .

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلد الجبل رأوا برداً شديداً وثلجاً متراكما فساروا إلى أذربيجان ، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدَم منهم ، وخرّبوا وأحرقوا ، ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان اوزبك بن البهلوان ، فلم يخرج إليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهاراً لا يفيق ،وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم ، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه ، والمراعي به كثيرة لأجل دوابهم ، فوصلوا إلى موفان ، وتطرفوا في طريقهم إلى بلاد

الكرج ، فجاء اليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلوهم ، فانهزمت الكرج ، وقتل أكثرهم ، وأرسل الكرج إلى اوزبك صاحب أذربيجان ، يطلبون منه الصلح ، والاتفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك ارسلوا إلى الملك الأشرف بن الملك العادل صاحب خلاط ولديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم ، وظنُّوا جميعهم ان التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع ،فلم يفعلوا كذلك بل تحرَّكوا وساروا نحو بلاد الكرج .

وانضاف اليهم مملوك تركي من مماليك اوزبك اسمه أقوش ، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم ، فاجتمع معهم خلق كثير، وراسل التتر في الانضمام اليهم ، فأجابوه إلى ذلك ومالوا إليه للجنسية ، فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر إلى الكرج ، فملكوا حصناً من حصونهم وخربوه ، ونهبوا البلاد وخرّبوها ، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم حتى وصلوا إلى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم ، فلقيهم أقوش أولَاً فيمن اجتمع إليه ، فاقتتلوا قتالًا شديداً صبروا فيه كلهم ، فقتل من اصحاب اقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال ، فقتل منهم أيضاً كثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كل جانب ، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة، ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ، ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من

حدود الصين ، لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد ارمينية من هذه الناحية ، ويجاوزون العراق من ناحية همذان ، وتالله لا اشك ان من يجيء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها،والحق بيده ،فمتى استبعد ذلك ، فلينظر أنا سطرنا نحن ، وكل من جمع التاريخ في ازماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسَّر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدوَ الى عظيم ، ومن الملكوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ، ولم ينل المسلمين اذى وشدة مذ جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن هذا العدو الكافر التتر، قد وطؤوا بلاد ما وراء النهر وملكوها، وخربوها، وناهيك به سعة بلاد وتعدَت طائفة منهم النهر إلى خراسان ، فملكوها وفعلوا مثل ذلك ، ثم إلى الري وبلد الجبل

وأذربيجان ، وقد اتصلوا بالكرج ، فغلبوهم على بلادهم ، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا إخراجهم منها، وباقي ديار مصر على خطر، فإنا لله لانا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن اعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمداً قد عدم لا يعرف حقيقة خبره ، فتارة يقال مات عن همذان ، وأخفي موته ، وتارة دخل اطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر في اثره ، وتارة يقال عاد إلى طبرستان ، وركب البحر فتوفّي في جزيرة هناك ، وبالجملة فقد عدم ، ثم صحّ موته ببحر طبرستان ، وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم اصبح سائباً لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه ، والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد، ويترك ما أراد، على انهم لم يبقوا على مدينة إِلا خربوها، وكل ما مروا عليه نهبوه ، وما لا يصلح لهم احرقوه ، فكانوا يجمعون الإبريسم تلالاً ويلقون فيه النار، وكذلك غيره من الامتعة .

ذكر ملك التتر مراغة

في صفر سنة ثمان عشر وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان ،وسبب ذلك اننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج ، وانقضت تلك السنة، وهم في بلاد الكرج ، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوَّية ومضايق تحتاج إلى قتال وصرخ ، فعدلوا عنهم ، وهذه كانت عادتهم إذا

قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها، فوصلوا إلى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب ، فساروا عنه إلى مدينة مراغة، فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بقلعة رويندز، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، فلما حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها، وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قلموا من معهم من أسارى المسلمين بين ايديهم يزحفون ويقاتلون ، فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقتلون كرهاً وهم المساكين كما قيل : كالاشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين ، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه ، فأقاموا عليها عدَّة أيام ، ثم ملكوا المدينة عنوة وقهراً رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما

يخرج عن الحد والإحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم ، وما لا يصلح لهم ، واحرقوه ، واختفى بعض الناس منهم ، فكانوا يأخذون الأسارى ، ويقولون لهم : نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا، فإذا نادى أولئك خرج من اختفى ، فيؤخذ ويقتل .

وبلغني أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلاً فوضعت السلاح ، وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيراً .

وسمعت من بعض أهلها ان رجلاً من التتر دخل درباً فيه مائة رجل ، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء ووضعت الذلة على الناس ، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً – نعوذ بالله من الخذلان – ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل ، ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل ، فخفنا حتى إن بعض الناس هتم بالجلاء خوفاً من السيف ، وجاءت كتب مظفر الدين صاحب إربل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر، فسيَّر جمعاً صالحاً من عسكره ، وأراد ان يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلا يجوزها احد، فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ، ويمنعهم من الجواز إليه ، ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل ، والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره ، بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها إلى هذه الناحية ويطرقون العراق ، فسار مظفر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل ، وتبعهم من المتطوِّعة كثير، وأرسل الخليفة ايضا إلى الملك الأشرف

يأمره بالحضور بنفسه في عسكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم، فاتفق ان الملك المعظم بن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف ، وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر، وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج ، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه ، وقوة الفرنج ، وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها، وشرع يتجهَّز للسير إلى الشام ليدخل مصر، وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط ، فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر، وهو اكبر امير بالعراق ، ومعه غيره من الأمراء في نحو ثمانمائة فارس ، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة، وكان المقدم على الجميع مظفر الدين ، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

وحكى مظفر الدين قال : لمّا أرسل إلى الخليفة في معنى التتر قلت له : إن العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به ، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد، فامرني بالمسير وواعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي ، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين ، ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم ، رجعوا القهقرى ظناً منهم ان العسكر يتبعهم، فلما لم يروا أحداً يطلبهم أقاموا ، وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقا ، فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرَّقوا ، وعادوا إلى بلادهم .

ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها

لما تفرَّق العسكر الاسلامي عاد التتر إلى همذان ، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم بها شحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه يأمرونه ليطلب من اهلها مالاً وثياباً، وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شريفاً علوّياً ، وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة، وهو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال ، فلما طلبوا الآن منهم المال ، لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم ، فحضروا عند الرئيس ، ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياماً مرضياً، فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد افنوا اموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم ، وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان ، وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في اهلها بما يختاره ، فقال الشريف : إذا كنا نعجز عنهم ، فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا

مصانعتهم بالأموال ، فقالوا له : أنت أشد علينا من الكفار، وغلظوا له في القول . فقال : أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتّم ، فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر، فوثب العامة على الشحنة، فقتلوه وامتنعوا في البلد، فتقدم التتر اليهم وحصروهم .

وكانت الأقوات متعذِّرة في تلك البلاد جميعها لخرابها، وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم ، فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا ، وأما التتر، فلا يبالون لعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم ، ولا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض حتى انها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات ، فتأكلها، فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم ، فقتل من التتر خلق كثير، وجرح الفقيه عدة جراحات ، وافترقوا ثم خرجوا من

الغد، فاقتتلوا أشدَّ من القتال الأول ، وقتل أيضاً من التتر اكثر من اليوم الأول ، وجرح الفقيه ايضا عدَّة جراحات ، وهو صابر وأرادوا ايضا الخروج في اليوم الثالث ، فلم يطق الفقيه الركوب. ، وطلب الناس الرئيس العلوي ، فلم يجدوه ، وكان قد هرب في سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى لهلعة هناك على جبل عال ، فامتنع فيها، فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى ان يموتوا، فأقاموا في البلد، ولم يخرجوا منه ، وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم ، فلما لم يروا أحد أخرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله ، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف ، وقاتلهم الناس في الدروب ، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين ، فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى –وقوي التتر على المسلمين ، فأفنوهم قتلاً ولم يسلم الا من كان عمل له نفقاً يختفي فيه ، وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ، ثم ألقوا النار في البلد فاحرقوه ، ورحلوا عنها إلى مدينة أردويل .

وقيل كان السبب في ملكها أن أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أثار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكراً مع أمير يجمع كلمتهم ، فاتفقوا على ذلك ، فكتب إلى الخليفة ينهي إليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العلو من الصغار والخزي ، وبطلب نجدة ولو ألف فارس من أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه ، فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال

إلى التتر يعلمهم ذلك ، فأرسلوا إلى الطريق ، فأخذوهم واخذوا الكتب منهم ، وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال ، فجحد، فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة، فسقط في أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ، وقاتلوهم وجرى في القتال كما ذكرنا .

ذكر مسير التتر إلى اذربيجان وملكهم أردويل وغيرها

لما فرغ التتر من همذان صاروا إلى اذربيجان ، فوصلوا إلى اردويل ، فملكوها وقتلوا فيها واكثروا ، وخربوا أكثرها، وساروا منها إلى تبريز، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي ، وجمع كلمة أهلها ، وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان ، وكان أميراً مختلفاً، لا يزال منهمكا قي الخمر ليلاً ونهاراً يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هيعة طار مجفلاً لها، وله جميع أذربيجان ، وأران ، وهو اعجز خلق الله عن البلاد من

عدوّ يريدها ويقصدها، فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز، وقصد نقجوان ، وسيَّر أهله ونساءه إلى خوى ليبعد عنهم ، فقام هذا الطغرائي بأمر البلد، وجمع الكلمة، وقوى نفوس الناس على الامتناع ، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني ، وحصَّن البلد بجهده وطاقته ، فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم ، وانهم قد حصّنوا المدينة، واصلحوا اسوارها وخندقها ارسلوا يطلبون منهم مالاً وثياباً، فاستقرَّ الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك ، فسيروه إليهم ، فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو، فنهبوها وقتلوا كل من فيها، ورحلوا منها إلى بيلقان من بلاد أران ، فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى، وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها، فاستدعى اهلها منهم رسولاً يقرون معه الصلح ، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدمهم ، فقتله أهل البلد، فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ، ثم إنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف ، فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى إنهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة ، وكانوا يفجرون بالمرأة، ثم يقتلونها، وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة ، فيقتلهم واحداً بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يداً، فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب ، وساروا إلى مدينة كنجة ، وهي أم بلاد أران ، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج ، وحصانتها ، فلم

يقدموا عليها، فأرسلوا إلى اهلها يطلبون منهم المال والثياب ، فحملوا إليهم ما طلبوا ، فساروا عنهم .

ذكر وصول التتر إلى بلاد الكرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان ، وأزان ، بعضه بالملك وبعضه بالصلح ، ، وساروا إلى بلاد الكرج ، من هذه الأعمال أيضاً، وكان الكرج قد اعدوا لهم ، واستعدوا وسيّروا جيشاً كثيرا إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا فلم يثبت الكرج ، بل ولوا منهزمين ، فأخذهم السيف ، فلم يسلم منهم الا الشريد، ولقد بلغني أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبوا ى وصلوا إليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم ، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس ، وبها ملكهم جمع جموعاً اخرى، وسيّرهم إلى التتر ايضا ليمنعوهم من توسط بلادهم ، فرأوا التتر وقد

دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك ، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس ، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ، ورم وا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات ، فلم يتجاسروا على الوغول فيها ، فعادوا عنها ، وداخل الكرج منهم خوفٌ عظيمٌ حتى سمعت عن بعض اكابر الكرج ، وكان قد م رسولاً انه قال : من حدثكم ان التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه ، وإذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا، فإن القوم لا يفرُّون أبداً، ولقد أخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب رأسه بالحجر إلى ان مات ، ولم يسلم نفسه للأسرة.

ذكر وصولهم إلى دَرْبَنْد شِروان وما فعلوه

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربندشروان ، فحصروا مدينة شماخي ، وقاتلوا اهلها، فصبروا على الحصر، ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم ، وقيل : بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم ونجير ذلك ، ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم ، والقوا بعضه فوق بعض ، فصار مثل الغل وصدوا عليه ، فأشرفوا على المدينة وقاتلوا اهلها فصبروا ، واشتد القتال ثلاثة أيام فاشرفوا على أن يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه ، فالصبر أولى بنا نموت كراماً ، فصبروا تلك الليلة ، فأنتنت تلك الجيف وانهضمت ، فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب ، فعاودوا الزحف وملازمة القتال ، فضجر اهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء، فضعفوا، فملك التتر البلد، وقتلوا فيه كثيراً ونهبوا الأموال واستباحوها ، فلما فرغوا منه ارادوا عبور الدربند ،

فلم يقدروا على ذلك ، فأرسلوا رسولاً إلى شروان شاه ملك دربندشروان يقولون له ليرسل إليهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح ، فأرسل عشرة رجال من أعيان اصحابه ، فأخذوا احدهم فقتلوه ثم قالوا : للباقين إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمان ، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة، ولكن فيه موضع هو اسهل ما فيه من الطرق ، فساروا معهم إلى ذلك الطريق ، فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم .

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دَرْبَنْدَ شروان ساروا في تلك الأعمال وفيها أممٌ كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك ، فنهبوه وقتلوا من اللكز كثيراً ، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا

بمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللان ، وهم أمتم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجذوا وجمعوا عندهم جمعاً من قفجان فقاتلوهم ، فلم تظفر احدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون : نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ، ولا دينكم مثل دينهم ، ونحن نعاهدكم اننا لا نعترض إليكم ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم ، فاستقرَّ الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك ، فحملوا إليهم ما استقر وفارقهم قفجاق ، فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا ، وساروا إلى قفجاق ، وهم آمنون متفرِّقون لما استقر بينهم من الصلح ، فلم يسمعوا بهم إِلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم ، فأوقعوا بهم الأول فالأول ! وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم ، وسمع من كان بعيد الدار من قفجان الخبر، ففروا من غير قتال وأبعدوا ، وبعضهم اعتصم بالغياض ، وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس ، وأقام التتر في بلاد قفجان ، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف ، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى ، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى ، وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوادق ، وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم ، فإنها على بحر حزرية والمراكب تصل إليها ، وفيها الثياب ، فنشتري منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاسي والقندر والسنجاب وغير ذلك متا هو في بلادهم ، وبحر خزرية هذا بحز متصلٌ بخليج القسطنطينية، ولما وصل التتر إلى سوادق ملكوها، وتفرق اهلها منها، فبعضهم صد

الجبال بأهله وماله ، وبعضهم ركب البحر، وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان .

ذكر ما فعله التتر قفجاق والروس

لما استولى التتر على ارض قفجاق – كما ذكرنا – سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس ، وهي بلاد كثيرةُ طويلةٌ عريضة تجاورهم ، وأهلها يدينون بالنصرانية ، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم ، واتفقت كلمتهم على قتال التتر ان قصدوهم ، وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ، ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة إلى بلاد الروس ، فسمع الروس وقفجان خبرهم ، وكانوا مستعدين لقتالهم ، فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم التتر، فعادوا على أعقابهم راجعين ، فطمع الروس وقفجاق فيهم ، وظنوا انهم عادوا خوفاً منهم وعجزاً عن قتالهم ، فجدوا في

اتباعهم ، ولم يزل التتر راجعين ، وأولئك يقفون اثرهم اثني عشر يوما، ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجان ، فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرّة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم ، فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما ، فصبر الطائفتان صبراً لم يسمع بمثله ، ودام القتال بينهم عدة ايام ، ثم ان التتر ظفروا واستظهروا ، فانهزم قفجان والروس هزيمة عظيمة بعد ان اثخن فيهم التتر، وكثر القتل في المنهزمين ، فلم يسلم منهم الا القليل ، ونهب جميع ما معهم ، ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة، وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا اكثرها، فاجتمع كثير من اعيان تجار الروس وأغنيائهم ، وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الاسلام في عدَّة فراكب ، فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم ، فغرق –الا ان الناس نجوا، وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً، وسلم باقي المراكب ، وأخبره من بها بهذه الحال .

ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ، ونهبوا بلادهم عادوا عنها ، وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم ، فلقوهم واستجروهم إلى ان جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل اكثرهم ولم ينج منهم الا القليل ،

قيل : كانوا نحو أربعة آلاف رجل ، فساروا إلى سقين عائدين إلى ملكهم جنكزخان ، وخلت ارض قفجاق منهم ، فعاد من سلم منهم إلى بلادهم ، وكان الطريق منقطعاً مذ دخلها التتر، فلم يصل منهم شيء من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد ، فلما فارقوها عادوا إلى بلادهم ، واتصلت الطريق ، وحملت الأمتعة كما كانت هذا اخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع .

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكزخان – لعنه الله –إلى خوارزمشاه ، وأما جنكزخان ، فانه بعد ان ستر هذه الطائفة إلى خوارزم شاه ، وبعد

انهزام خوارزمشاه من خراسان ، قسم اصحابه عدَّة أقسام ، فسيَّر قسماً منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها، وسيَّر قسماً آخر منها إلى ترمذ، وسيَّر قسما منها إلى كلابة، وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون ، فسارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها، ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل اصحابهم ، فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان ، وهو بسمرقند فجهّز جيشاً عظيماً مع احد اولاده وسيّره إلى خوارزم ، وسيَّر جيشاً آخر فعبروا جيحون إلى خراسان ،

ذكر ملك التتر خراسان

لمّا سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون ، وقصدوا مدينة بلخ ، فطلب أهلها الأمان ، فأمنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة، ولم يتعرضوا إليه بنهب ، ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة، وساروا وقصدوا الزوزان وسميند واندخوي وقاريات ، فسلكوا الجميع ، وجعلوا فيه ولاة، ولم يتعرضوا إلى اهلها بسوء ولا اذى، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ، حتى وصلوا إلى الطالقان ، وهيٍ ولاية تشتمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة، يقال لها: منصوركوه لا ترام علواً وارتفاعا، وبها رجال يقاتلون شجعان ، فحصروها مدة ستة اشهر يقاتلون اهلها ليلاً ونهاراً ، ولا يظفرون منها بشيء ، فأرسلوا إلى جنكزخان يعرفونه بعجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناِعها بحصانتها، فسار بنفسه ، وبمن عنده من

جموعه اليهم ، وحصرها ومعه خلقٌ كثيرٌ من المسلمين اسرى، فأمرهم بمباشرة القتال ، وإلا قتلهم ، فقاتلوا معه ، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى، فقتل من التتر عليها خلق كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما امكن جمعه ، ففعلوا ذلك ، وصاروا يعملون صفا من خشب ، وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلاً عالياً يوازي القلعة فاجتمع من بها، وفتحوا بابها، وخرجوا منها، وحملوا حملة رجل واحد، فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب ، وأما الرجالة فقتلوا، ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأحوال والأمتعة، ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد التي أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها وسيَّرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، فدخلوا اليها، وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا

من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو، وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم ، فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا ، فصبر المسلمون ، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر، فقال وهو عند المسلمين : إن قيل إِن التتر يقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم ينهزمون فلا تصدقوا ، فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين ، فقتل التتر منهم وأسروا الكثير، ولم يسلم إلا القليل ، ونهبت اموالهم وسلاحهم ودوابهم .

وأرسل التتر إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو، فلما اجتمع لهم ما ارادوا تقدموا إلى مرو وحصروها ، وجدوا في حصرها ولازموا القتال ، وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم ، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي بها متقدما على من فيها يقولون له :لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج الينا فنحن نجعلك امير هذه البلدة، ونرحل عنك ، فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه ، وقال له : اريد ان تعرض على اصحابك حتى تنظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه اقطاعا ويكون معنا ، فلما حضروا عنده وتمتهَن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم ، فلما فرغ منهم قال لهم : اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة ، واكتبوا إلى ارباب الصناعات والحرف في نسخة اخرى ، واعرضوا ذلك علينا، ففعلوا ما امرهم ، فلما وقف

على النسخ أمر ان يخرج أهل البلد منه بأهلهم ، فخرجوا كلهم ، ولم يبق فيه احد، فجلس على كرسي من ذهب ، وأمر ان يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم ، فأحضروا وضربت رقابهم صبرا ، والناس ينظرون إليهم ويبكون .

وأما العامة فانَهم قسموا الرجال والنساء والأطفال ، فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل ، وأخذوا ارباب الأموال ، فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال ، فربما مات احدهم من شدة الضرب ، ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه ، ثم انهم احرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان سنجر، ونبشوا القبر طلباً للمال ، فبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة ، وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم اجمعين ، وأمر باحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة الف قتيل ، فإنا لله

وإنا إليه راجعون ممّا جرى على المسلمين ذلك اليوم ، ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام ، وبها جمع صالح من العسكر الِإسلامي ، فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة ، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء ، فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخربون ويفتشون المنازل عن الأموال ، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير، ونجوا إلى بلاد الِإسلام فأمروا باهل نيسابور ان تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ، ففعلوا بها كذلك أيضاً وخربوها، وخربوا المشهد الذي فيه الامام علي بن موسى الرضا (ع) والرشيد حتى جعلوا الجميع خراباً، ثم ساروا إلى هراة، وهي من احصن البلاد، فحصروها عشرة أيام ، فملكوها وأمنوا اهلها، وقتلوا منهم البعض ، وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين ابن خوارزم شاه ، فقاتلهم وهزمهم – على ما نذكره إن شاء الله – فوثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه ، فلما عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهراً وعنوةً، وقتلوا كل من فيه ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم ، ونهبوا السواد، وخربوا المدينة جميعها ، وأحرقوها، وعادوا إلى ملكهم جنكزخان ، وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خراسان ، ففعلوا بها كذلك ، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد، وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة .

ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها

واما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان إلى خوارزم ، فإنها كانت اكثر السرايا جميعها لعظم البلد، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة ، فقاتلوهم اشد قتال سمع به الناس ، ودام الحصر لهم خمسة اشهر، فقتل من الفريقين خلق كثير إلا أن القتلى من التتر كانوا اكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور ، فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد ، فأمدَّهم بخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه ، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا، فلم يقدروا على افراجهم ، ولم يزالوا يقاتلونهم ، والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم ، فكان الرجال والنساء

والصبيان يقاتلون ، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه ، وقتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل ما فيه ، ثم إنهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد، فدخله الماء فنرق البلد جميعه ، وتهدمت الابنية، وبقي موضعه ماء ولم يسلم من اهله احد البتة، فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض اهله ، منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء او قتله الهدم ، فأصبحت خراباً يبابا :

كأن لم يكنْ بين الحجُونِ إلى الصَفَا أنيس ولم يُسْمِرْ بمكةَ سَامرُ

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه ، نعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر، فلقد عمَّت هذه المصيبة الاسلام وأهله ، فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ، ولما فرغوا من خراسان وخوارزم ، عادوا إلى ملكهم بالطالقان .

ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور

لمّا فرغ التتر من خرسان ، وعادوا إلى ملكهم جيشاً كثيفاً، وسيّره إلى غزنة، وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكاً لها، وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه قيل كانوا ستين الفاً، فلما وصلوا إلى اعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع ابن خوارزمشاه إلى موضع يقال له : بلق فالتقوا هناك

واقتتلوا قتالا شديداً ؟ وبقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم أنزل الله نصره إلى المسلمين ، فانهزم التتر، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان ، فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه ، فسير إليهم جنكزخان عسكرا ،فملكوا البلد وخبربوه ، كما ذكرناه ، فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولاً إلى جنكزخان يقول له : في أقي موضع تريد يكون الحرب حتى نأتي إليه ؟ فجهز جنكزخان عسكراً كثيراً اكثر من الأول مع بعض أولاده ، وسيره إليه ، فوصل إلى كابل ، فتوجه العسكر الاسلامي اليهم ، وتصافوا هناك ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم الكفار ثانياً ، فقتل كثير منهم ، وغنم المسلمون ما معهم ، وكان عظيماً، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم ، ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة، وسبب ذلك ان اميراً منهم يقال له : سيف الدين بغراق أصله

من الأتراك الخلج ، كان شجاعاً مقداماً ذا رأي في الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه ، وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعباً، وهو الذي كسر التتر على الحقيقة .

وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له : ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب ، وهو صاحب هراة ، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة ، فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق ، فقال بغراق : أنا اهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت ، فغضب وفارق العسكر، وسار إلى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً كتهم يريدونه ، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق ، وسار بنفسه إليه وذكَّره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه ، فلم برجع وسار مفارقاً ، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا ، فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه ، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر، ولم يقدر على المقام سار نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماه السند، وهو نهركبيو، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه ، وكان جنكزخان يقص أثره مسرعاً، فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان في التتر، فاضطر المسلمون حنيئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم ، وكانوا في ذلك كالأشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر، فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم ان كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال ، فبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره ، وخلق كثير، وكان القتل في الكفار اكثر، والجراح اعظم ، فرجع الكفار عنهم

فأبعدوا ونزلوا ، فلما رأى المسلمون انهم لا مدد لهم ، وقد ازدادوا صعفا بمن قتل منهم وجرح ، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك ، فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمين ليقضي الله امرا كان مفعولاً، فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وبعدهم ، فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامي ، فقتلوا اهلها ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم ، ولم يبق احد، وخربوها وأحرقوها، وفعلوا بسوادها كذلك ، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها، كان لم تغن بالأمس .

ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى اخيه شهاب الدين غازي

أواخر هذه السنة اقطع الملك الأشرف موسى بن العادل مدينة خلاط ، وجميع الأعمال ارمينية ، ومدينة ميافارقين من ديار بكر، ومدينة حابي أخاه شهاب الدين غازي ابن العادل ، وأخذ منه مدينة الرها ، ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره إلى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة، وسبب ذلك ان الكرج لما قصد التتر بلادهم ، وهزموهم ونهبوها ، وقتلوا كثيراً من اهلها ارسلوا إلى أوزبك صاحب اذربيجان واران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا إلى الملك الأشرف في هذا المعنى ، وقالوا للجميع :إن لم توافقونا على قتال هؤلاء ازوم ، ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم وإلا صالحناهم عليكم ، فوصلت رسلهم إلى الاشرف وهو يتجهز إلى الديار المصرية لأجل الفرنج ، وكانوا عنده أهم الوجوه لأسباب ، أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط ، وقد أشرفت الديار المصرية على أن تملك ، فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد، وثانيها أن الفرنج أشدَّ شكيمة، وطالبو ملك فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوماً واحد، وثالثها أن الفرنج قد طمعوا في كرسي مملكة البيت العادلي ، وهي مصر ، والتتر لم يصلوا إليها ولم يجاوزوا شيئاً من بلادهم ، وليسوا أيضاً ممن يريد المنازعة في الملك ، وما غرضهم إلا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر، فلما أتاه رُسُلُ الكُرج بما ذكرناه أجابهم يتعذر بالمسير إلى مصر

لدفع الفرنج ، ويقول لهم : إنني قد أقطعت ولاية خلّاط لأخي وسيرته إليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر، وسار هو إلى مصر كما ذكرناه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الآخر، ملك بدر الدين قلعة تل اعفر.

وفيها في جمادى الأولى ملك الأشرف مدينة سنجار.

وفيها ايضاً وصل الموصل ، وأقام بظاهرها، ثم سار يريد إربل لقصد صاحبها، فترددت الرسل بينهم في الصلح ، فاصطلحوا في شعبان ، وقد تقدم هذا جميعه مفصلًا

سنة خمس عشرة وستمائة .

وفيها وصل التتر الري فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها، وساروا عنها فوصلوا إلى همدان ، فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل ، فأبقوا على أهلها وساروا إلى أذربيجان ، فخربوا وحرقوا البلاد، وقتلوا وسبوا، وعملوا ما لم يسمع بمثله ، وقد تقدم أيضاً مفصلاً

وفيها توفي نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الذي كان وزير الخليفة وصلي عليه بجامع القصر، وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد .

وفيها توفي صدر الدين ابو الحسن محمد بن عمر بن حموية الجويني شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل وردها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً من بيت كبير من خراسان – رحمه الله –كان نعم الرجل .

وفيها عاد جمع بني معروف إلى مواضعهم من البطيحة، وكانوا قد ساروا إلى الاجنا والقطيف ، فلم يمكنهم المقام لكثرة اعدائهم ، فقصدوا شحنة البصرة، وطلبوا منه ان يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم ، فكتب معهم بذلك ، وسيرهم مع اصحابه إلى بغداد، فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر وفاة قتادة امير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج

في هذه السنة في جمادى الأخرة، توفّي قتادة بن ادريس العلوي ، ثم الحسيني امير مكة حرسها الله ، وكان عمره نحو سبعين سنة، وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبي – صلى الله عليه وسلم – وله قلعة ينبع بنواحي المدينة، وكثر عسكره ، واستكثر من المماليك ، وخافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً، وكان أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله – حسن السيرة، وأزال عنها العبيد المفسدين ، وحمى البلاد، وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم ، وبقي كذلك مدة ثم إنه بعد ذلك اساء السيرة، وجدّد المكوس بمكَّة، وفعل افعالاً شنيعة، ونهب الحاج في بعض السنين – كما ذكرناه –، ولمّا مات ملك بعده ابنه الحسن ، وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم في العرب بظاهر مكة، يفسد وينازع اخاه في مسلكه ، فلما سار حاج العراق كان الأمير عليهم مملوكاً من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش ، وكان حسن السيرة مع الحاج في الطريق كثير الحماية، فقصده راجح بن قتادة، وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على ملك مكة، فأجابه إلى ذلك ، ووصلوا إلى مكة، ونزلوا بالزاهر،وتقدُّم إلى مكة مقاتلاً لصاحبها حسن ، وكان حسن قد جمع جموعاً كثيرة من العرب وغيرها فخرج إليه من مكة وقاتله ، وتقدم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفرداً وصعد الجبل إذلالاً بنفسه ، وانه لا يقدم احد عليه ، فأحاط به اصحاب حسن وقتلوه ، وغلقوا

رأسه ، فانهزم عسكر امير المؤمنين ، واحاط اصحاب حسن بالحاج لينهبوهم ، فأرسل اليهم حسن عمامته أماناً للحجاج ، فعاد اصحابه ولم ينهبوا منهم شيئاً، وسكن الناس ، وأذن لهم حسن في دخول مكة، وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك ، واقاموا بمكة عشرة ايام ، وعادوا فوصلوا إلى العراق سالمين ، وعظم الأمر على الخليفة، فوصلت رسل حسن يعتذرون ، ويطلبون العفو عنه فأجيب إلى ذلك .

وقيل في موت قتادة أن ابنه حسن خنقه ، فمات ، وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعاً كثيرة ، وسار عن مكَّة يريد المدينة ، فنزل بوادي الفرع وهو مريض ، وسيَّر أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة ، فلما ابعدوا بلغ الحسن أن عمَّه ، قال لبعض الجند : إن أخي مريض ، وهو ميت لا محالة، وطلب منهم ان يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمَه واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه ، فقال الحسن لعمه : قد فعلت كذا وكذا ، فقال : لم افعل فأمر حسن الحاضرين بقتله ، فلم يفعلوا : وقالوا : أنت أمير وهذا أمير، ولا نمد أيدينا إلى أحد كما قال له غلامان لقتادة : نحن عبيدك ، فمرنا بما شئت ، فأمرهما أن يجعلا عمامة عمه في عنقه ففعلا ثم قتله ، فسمع قتادة الخبر، فبلغ منه الغيظ كل مبلغ ، وحلف ليقتلن ابنه ، وكان على ما ذكرناه من المرض ، فكتب بعض اصحابه إلى الحسن يعرفه الحال ، ويقول له : ابدأ به قبل ان يقتلك ، فعاد الحسن إلى مكة ، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً ، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ، ففارقوا الدار، وعادوا إلى مساكنهم ، ودخل الحسن إلى أبيه ، فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده ، فوثب إليه الحسن ، فخنقه لوقته وخرج إلى الحرم الشريف . واحضر الأشراف وقال : ان أبي قد اشتد مرضه وقد أمركم ان تحلفوا لي ان أكون أنا أميركم فحلفوا له ، ثم إنه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس انه مات وكان قد دفنه سرًّا، فلما استقرت الامارة بمكة له أرسل إلى اخيه الذي بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه ، وكتم

موت أبيه عنه ، فلما حضر أخوه قتله أيضاً ، واستقر أمره ، وثبَت قدمه وفعل بأمير الحاج – ما تقدم ذكره – فارتكب عظيماً قتل أباه وعمه وأخاه في أيامٍ يسيرة ، لا جرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى ، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفا يترقب . وقيل : إن قتادة كان يقول شعراً ، فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع، فعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات شعر منها :

وَلي كفُّ ضرغام أدل ببَطْشِهَا   وأَشرِي بهَا بينَ الورى وأبيعُ
تظل ملوكُ الأرضَ تلثمُ ظَهرَها   وفي سطحِهَا للمَجْد بينَ ربيعُ
أ أجعَلُها تحتَ الرَحـا ثم أبتغي   خلاصاً لَهَا إني إذا لرقِيع
وما أنا إلا المسكُ في كل بلدةٍ   يَضُوعُ ، وأما عندَكم فيضيع

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج ، وقد تقدم ذكرها مشروحاً مفصلاً .

وفيها في صفر ملك التتر مراغة وخرّبوها واحرقوها وقتلوا اكثر اهلها، ونهبوا أموالهم ، وسبوا حريمهم ، وسار التتر منها إلى همذان وحصروها ، فقاتلهم اهلها ، وظفر بهم التتر، وقتلوا منهم ما لا يحصى ، ونهبوا البلد وساروا إلى أذربيجان ، فأعادوا النهب ، ونهبوا ما بقي من البلاد، ولم ينهبوه أولاً، ووصلوا إلى بيلقان من بلاد اران ، فحصروها وملكوها، وقتلوا اهلها حتى كادوا يفنونهم ، وقتل منهم كثير، ونهبت اموالهم ، وأكثر بلادهم ، وقصدوا دربندشروان ، فحصروا مدينة شماخي وملكوها ، وقتلوا كثيراً من أهلها، وساروا إلى بلد اللان واللكز ومن عندهم من الأمم ، فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق ، وأجلوهم عنهم ، واستولوا عليها، وساحوا في تلك الأرض حتى وصلوا إلى بلاد الروس ، وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى ، وإنما أوردناه ههنا جملة ليعلم الذي كان في هذه السنة من حوادثهم .

وفيها توفي صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلي ، ولم يكن في زمانه من يكتب ما يقاربه ، ولا من يؤدي طريقة ابن البواب مثله ، وكان ذا فضائل جثة من علم الأدب وغيره ، وكان كثير الخير، نعم الرجل مشهوراً في الدنيا، والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ، ولهم فيه أقوال كثيرة نظما ونثراً، فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن علي الواسطي من قصيدة يمدحه بها :

جامعُ شـارد العـلوم ولَوْلَاه لَكَـانَت الفَضَـائِل ثَكْلَى
ذو يراع تخافُ سطوتهُ الْأُسْدُ وتَعْنـو لَهُ الكتائـبُ ذلا
وإذا افتر ثَغْرُهُ عن سـوادٍ في بَيَاضٍ فالبيضُ والسُمْرُ خَجلَى
أنت بدرٌ والكاتبُ بن هِلال كأبِيهِ لا فَخْرَ فيمن تولى

ومنها:

إن يكنْ أولاً فانك بالتفضِيل أولى لقدْ سبقْتَ وصلَى

وهي طويلة، والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذي هو أشهر من أن يعرف .

وفيها توفّي جلال الدين الحسن ، وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذي تقدّم ذكره صاحب الموت وكردكوه ، وهو مقدَّم الاسماعيلية ، وقد ذكرنا أنه . كان قد اظهر شريعة الاسلام من الأذان والصلاة، وولي بعد ابنه علاء الدين محمد .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم

لما استولى التتر على أرض قفجاق ، تفرَّق قفجاق ، فطائفة قصدت بلاد الروس ، وطائفة تفرقت في جبالهم ، واجتمع طائفة كثيرة منهم ، وساروا إلى دربند شروان ، وأرسلوا إلى صاحبه ، واسمه رشيد، وقالوا له : إن التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا، وقد قصدناك لنقيم في بلادك ، ونحن مماليك لك ، ونفتح البلاد لك ، وأنت سلطاننا، فمنعهم من ذلك وخافهم ، فأعادوا الرسالة إليه إننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا، على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك ، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة، فإذا اشتروا ما يحتاجون إليه فارقوا بلاده ، فأجابهم إلى ذلك ، فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون ما يريدون ، ويخرجون ، ثم إِن بعض كبرائهم والمقدَّمين منهم جاء إلى رشيد، وقال : إنني كنت في خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم ، والدين يحملني على نصحك ، اعلم ان قفجاق اعداؤك ، ويريدون الغدر بك ، فلا تمكنهم من المقام ببلادك ، فاعطني عسكراً حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد، ففعل ذلك ، وسلم إليه طائفة من عسكره واعطاهم ما يحتاجون من سلاح وغيره ، فساروا معه فأوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم ، فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد، ولولا ذلك لقاتلنا عسكره ، فلما عاد ذلك المقدم القفجاقي ومعه

عسكر رشيد سالمين فرح بهم ، ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم ، فساروا ثلاثة أيام ، فقال ذلك القفجاقي لرشيد : أريد عسكرا اتبعهم ، فأمر له من العسكر بما أراد، فسار يقفو أثر القفجاقي ، فأوقع بأواخرهم وغنم منهم .

وقصده جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون ، وتجد جزوا شعورهم ،

ومعهم تابوت ، وهم محيطون به يبكون حوله ، وقالوا له إن صديقك فلاناً قد مات ، وقد أوصى ان نحمله إليك فتدفنه في أئ موضع شئت ، ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضاً وعاد إلى شروان شاه رشيد وأعلمه أن الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله ان يكونوا عنده في خدمته ، فأمر أن يدخلوا البلد وأنزلهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ، ويركبون بركوبه ، ويصعدون معه إلى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده ، ويشربون معهم ونساؤهم ، فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذي قيل له انه ميت ، ولم لا يكن مات ، وإنما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذي أظهروا موته معهم في المجلس، ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمي قفجاق ، فبقوا كذلك عدة أيام ، فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين ، فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده ، ففطن لذلك ، فخرج عن القلعة من باب السر، وهرب ومضى إلى شروان ، وملك قفجاق القلعة، وقالوا لأهل البلد : نحن خير لكم من رشيد، وأعادوا باقي أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح الذي في البلد جميعه ، واستولوا على الأموال التي كانت لرشيد في القلعة، ورحلوا عن القلعة، وقصدوا قبلة، وهى للكرج ، فنزلوا عليها وحصروها، فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع اليها وملكها وقتل من بها من قفجاق ، ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك ، فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة ، فقتلهم رشيد أيضا ، فبلغ الخبر إلى القفجاق ، فعادوا إلى دربند، فلم يكن لهم في القلعة طمع ،

وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل إليهم ، وقال لهم : أنا أرسل إلى ملك الكرج حتى يرسل اليكم الخلع والأموال ، ونجتمع نحن وأنتم ، ونملك البلاد، فكفوا عن نهب ولايته أياماً ، ثم انهم مدّوا ايديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها، وساروا إلى قريب كنجة من بلاد أرادن ، وهي للمسلمين ، فنزلوا هناك ، فأرسل اليهم الأمير بكنجة ، وهو مملوك لأوزبك صاحب أذربيجان اسمه كوشخرة عسمكراً، فمنعهم من الوصول إلى بلاده وسيَّر رسولاً إليهم يقول لهم : غدرتم بصاحب شروان واخذتم قلعته ، وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده ، فما يثق بكم أحد ، فأجابوا أننا ما جئنا الا قصداً لخدمة سلطانكم ، فمنعنا شروان شاه عنكم ، فلهذا قصدنا بلاده وأخذنا قلعته ، ثم تركناها من غير خوف ، وأما صاحب قبلة، فهوِ عدو لكم ، ولو أردنا أن نكون عند الكرج لما كنا جعلنا طريقنا على دربندشروان ، فإنَه اصب واشق وأبعد وكنا جئنا إلى بلادهم على عادتنا ، ونحن نوجه الرهائن اليكم ، فلما سمع هذا سار

اليهم ، فسمع به قفجاق ، فركب اميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير، وجاؤوا إليه ولقوه وخدموه ، وقالوا له : قد اتيناك جريدة في قلَّة من العدد لتعلم أننا ما قصدنا إِلا الوفاء والخدمة لسلطانكم ، فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة ، وتزوج ابنة احدهم ، وأرسل إلى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم ، فأمر لهم بالخلع والنزول بجبل كيلكون ، ففعلوا ذلك وخافهم الكرج ، فجمعوا لهم ليكبسوهم ، فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كنجة ، فأخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة ، فعادوا ونزلوا عندها، وسار امير من امراء قفجاق في جمع منهم إلى الكرج ، فكبسهم وقتل كثيراً منهم ، وهزمهم وغنم ما معهم ، واكثر القتل فيهم والأسر منهم ، وتمت الهزيمة عليهم ، ورجع قفجاق إلى جبل كيلكون ، فنزلوا فيه كما كانوا ، فلما نزلوا اراد الأمير الأخر من أمراء قفجاق أن يؤثر في الكرج مثل ما فعل صاحبه فسمع كوشخرة، فأرسل إليه ينهاه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار إلى بلادهم في طائفته ونهب وخرب ، وأخذ الغنائم ، فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه ، فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة، فوضعوا السيف فيهم ، وأكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة، وأرسلوا إلى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج ، فيأخذوا بثارهم منهم ، فلم يفعل وأخافهم ، وقال : انتم خالفتموني وعملتم برأيكم ، فلا انجدكم بفارس واحد ، فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم ، فلم

يعطهم ، فاجتمعوا واخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن ، فثار بهم المسلمون من أهل البلاد، وقاتلوهم ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فخافوا وساروا نحو شروان ، وجازوا إلى بلد اللكز، فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم ، فأفنوهم قتلا ونهباً وأسراً وسبيا، بحيث ان المملوك منهم كان يباغ في دربند شروان بالثمن البخس .

ذكر نهب الكُرج بَيْلقان

في هذه السنة في شهر رمضان ، سار الكرج من بلادهم إلى بلاد أران ، وقصدوا مدينة بيلقان ، وكان التتر قد خربوها ونهبوها – كما ذكرناه قبل – فلما سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من اهلها اليها وعمروا ما أمكنهم عمارته من سورها، فبينما هم كذلك اذا اتاهم الكرج ، ودخلوا البلد وملكوه، وكان المسلمون في تلك البلاد ألفوا من

الكرج انهم إذا ظفروا ببلد صانعوهم بشيء من المال ، فيعودون عنهم ، فكانوا احسن الأعداء مقدرة، فلما كان هذه الدفعة ظنً المسلمون انهم يفعلون مثل ما تقدم ، فلم يبالغوا في الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم ، فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر، هذا جميعه يجري وصاحب بلاد أذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز، ولا يتحرك في صلاح ، ولا يتجه لخير بل قد قنع بالأكل وادمان الشرب والفساد، فقبحه الله ، ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمَّد وآله .

ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش

في هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من اعمال الحميدية، وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخاً، وسبب ذلك انها كانت هي وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكي بن أرسلانشاه ، وكان بينهما من الخلف ما تقدم ذكره ، فلما كان هذه السنة سار زنكي إلى اذربيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان ، فاتصل به ، وصار معه واقطعه اقطاعات وأقام عنده ، فسار بدر الدين إلى قلعة شوش ، فحاصرها وضيق عليها، وهي على رأس جبل عال ، فطال مقامه عليها لحصانتها، فعاد إلى الموصل وترك عسكره محاصراً لها، فلما طال الأمر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سئَموها على قاعدة استقرَّت بينهم من اقبع وخلع وغير ذلك ، فتسلمها نوابه في التاريخ ، ورتبوا أمورها ، وعادوا إلى الموصل .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في العشرين من شعبان ظهر كوكب في السماء في الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة، وكان طلوعه وقت السحر، فبقي كذلك عشرة أيام ، ثم انه ظهر اول الليل في الغرب مما يلي الشمال ، فكان كل ليلة يتقدم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين ، فلم يزل يقرِب من الجنوب حتى صار غرباً محضاً، ثم صار غرباً مائلاً إلى الجنوب بعد ان كان غرباَ مما يلي الشمال ، فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب .

وفيها توفي ناصر الدين محمود بن محمد قزا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد، وكان ظالماً قبيح السيرة في رعيته ، قيل : إِنه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في أن الأجساد لا تحشر،كذبوا لعنهم الله ، ولما مات ملك ابنه الملك المسعود .

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى

في هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة ، وصاحبها حينئذٍ حسن بن قتادة بن ادريس العلوي الحسيني قد ملكها بعد ابيه كما ذكرنا ، وكان حسن قد أساء إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه ، وقد تفرقوا عنه ، ولم يبقَ عنده غير أخواله ، من غيره ، فوصل صاحب اليمن إلى مكة ونهبها عسكره إلى العصر، فحدثني بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم ، وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه ، فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن ، والناس ينظرون إليه ، فلم يروا فيه شيئاً ، فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سراً ، وانه لم يجعل في التابوت شيئاً ، وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم ، وعجل الله مقابلته ، وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لأجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

ذكر حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية

في هذه السنة في شعبان ، سار صاحب قلعة سرماري ، وهى من أعمال ارمينية إلى خلاط لانه كان في طاعة صاحب خلاط ، وهو حينئذٍ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن ايوب ، فحضر عنده ؛ واستخلف ببلده اميراً من أمرائه ، فجمع هذا الأمير جمعاً وسار إلى بلاد الكرج ، فنهب منها عدة قرى، وعاد فسمعت الكرج بذلك ، فجمع صاحب دوين ، واسمه

شلوة، وهو من أكابر امراء الكرج عسكره ، وسار إلى سرماري ، فحصرها أياماً ونهب بلدها وسوادها ، ورجع فسمع صاحب سرماري الخبر، فعاد إلى سرماري ، فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها، فأخذ عسكره وتبعهم ، فأوقع بساقنهم ، فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ، ثم إن صاحب دوين جمع